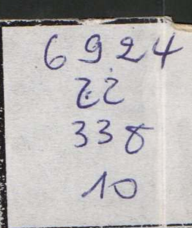
ك. ابراهيمي

تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر



ترجمة:
- محمد البشير شنيتي - رشيد بورويبة







صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

ل. ابراهيمي

تمهيد حول ماقبل التاريخ في الجزائر

ترجمة :

محمد البشير شنيتي رشيد بورويبة



توطئـــة

يبدو من المفيد اختراق التقاليد التي تجعل معرفة ما قبل التاريخ في الجزائر وقفا على النشريات المتخصصة ، وذلك لتمكن اكبر نسبة مـن الجمهور للاطلاع على ما وقع في الجزائر حتى بداية العصور التاريخيـة .

ان الجزائر غنية جدا بآثار ما قبل التاريخ ، ويستهدف هذا ((التمهيد)) وضع حد للوضعية الشاذة التي تجعلنا آخر من يطلع على هذه الثروة .

وقد بذلنا جهودنا هنا كي نذكر بوضوح دون أن تنقصنا الدقة ، ما جرى خلال هذه الآلاف من السنين ، لكننا لا نزعم أننا بصدد تقديم مؤلف يشتمل على جميع ما عرف حول هذا الموضوع حتى الآن ، اذ لا يسعنا المجـال ولا الوقت للقيام بمثل هذا المشروع .

يكون هذا التمهيد قد حقق هدفه اذا تمكن من دفع الجمهور نحو مزيد من الاطلاع على ما قبل تاريخنا . واذا وصل بالجمهور الى تقييم مدلول هذا الميراث الثقافي ، مدرجا الى جانب مسجد سيدي عقبة ، آثار جميلة ورسوم الطاسيلي ورملية تيرنيفين ومقبرة افالوبورمل ، فان هذا ((التمهيد)) يكون قد تجاوز هدفه .

مقدمـــة

ما هو علم آثار ما قبل التاريخ ؟

يستهدف علم آثار ما قبل التاريخ كشف ودراسة حضارات الانسان العائدة الى ما قبل اختراع واكتساب الكتابة الأبجدية . وتتوقف معرفة هذه الحضارات على فحص الوثائق المادية التي خلفها الانسان ، والتي ظلت في معظمها محفوظة ضمن الرسوبات . تكمن المهمة الأولى للمشتغل بما قبل التاريخ اذن في تنقيب التربة تبعا لطرق ملائمة من اجل اخراج هذه الوثائق ثم دراستها .

ان الوثائق الأثرية متنوعة ، ولكن الوحيدة الباقية منها هي الأدوات المكونة من مادة مقاومة لعوامل الافناء الكيميائية والفيزيائية . ولهذا السبب لم تصلنا الأدوات الخشبية او القصبية ، كما ان العظم نفسه قد تعرض في بعض الترب الحمضية للتلف ((الفناء)) .

تقدم حفرية ما قبل التاريخ للمنقب اذن ، وحسب الحالات ، أدوات او اسلحة حجرية وعظمية ، وعظاما حيوانية ، وقواقع رخويات ، وعظاما بشرية ، وبيضا (خاصة بيض النعام) ، وقطعا فحمية ، وألوانا معدنية ، وغير ذلك ... كما يعثر أيضا على أوعية من الفخار في مواقع العصور المتأخرة ، وكذلك على أدوات معدنية تعود الى فترة تالية .

الحفرية :

تستهدف الحفرية الكشف عن الوثائق ، وقد تكون أحيانا عبارة عن التقاط للأدوات ، وبما أن اناس ما قبل التاريخ عاشوا فوق الموقع ، فانه يمكن العثور على أثر اقامتهم حول المحطات ، وعلى الأماكن التي كانوا يصنعون فيها أدواتهم . وباختصار يجب العثور على بنية المسكن وفهمها . ولهذا فمن الضروري أن يعمد الى تنظيف الطبقة الأثرية من الرسوبات ، التي يعثر فيها على الوثائق بدقة كبيرة . ثم القيام بتحديد أماكن وجود الوثائق والوضعية النسبية التي كانت عليها باتباع نظام الاحداثيات ذات الأبعاد الثلاثة (صورة 1) . انه الشرط الوحيد الذي يمكن الأثري أن يأمل في العثور على بنيات المساكن .

كثيرا ما كان الموقع الواحد محل استيطان طويل ، ولم يهجر الا مؤقتا وفي هذه الحال تتراكب المساكن ، وتكون الأقدم هي الأكثر عمقا . واحيانا ، عند انقطاع العمران ، يحدث ان تتكون طبقة فاصلة بين السابقة واللاحقة ، وتكون هذه الطبقة الفاصلة محتوية على تربة وحصباء خالية من الوثائق . ولقد قدم لنا موقع كلومناطة (تيارت شكل 1) نموذجا لهذه الحالة ، حيث احتوت الجهة الجنوبية من هذا الموقع على ثلاث حضارات متراكبة ، تفصل الواحدة عن الأخرى انقاض من التربة الخالية من الوثائق . ونقول اذن ان الحضارات التي على هذا المنوال مرتبة على النظام الطبقي (استراتيغرافية) . وتسمح هذه الوضعية عند التأكد من خلوها من التداخل المتسبب في تغيرها وافساد خصائصها ، بافراد اية حضارة منها بكرونولوجي له صلة بالتي تعلوها او التي تقع تحتها .

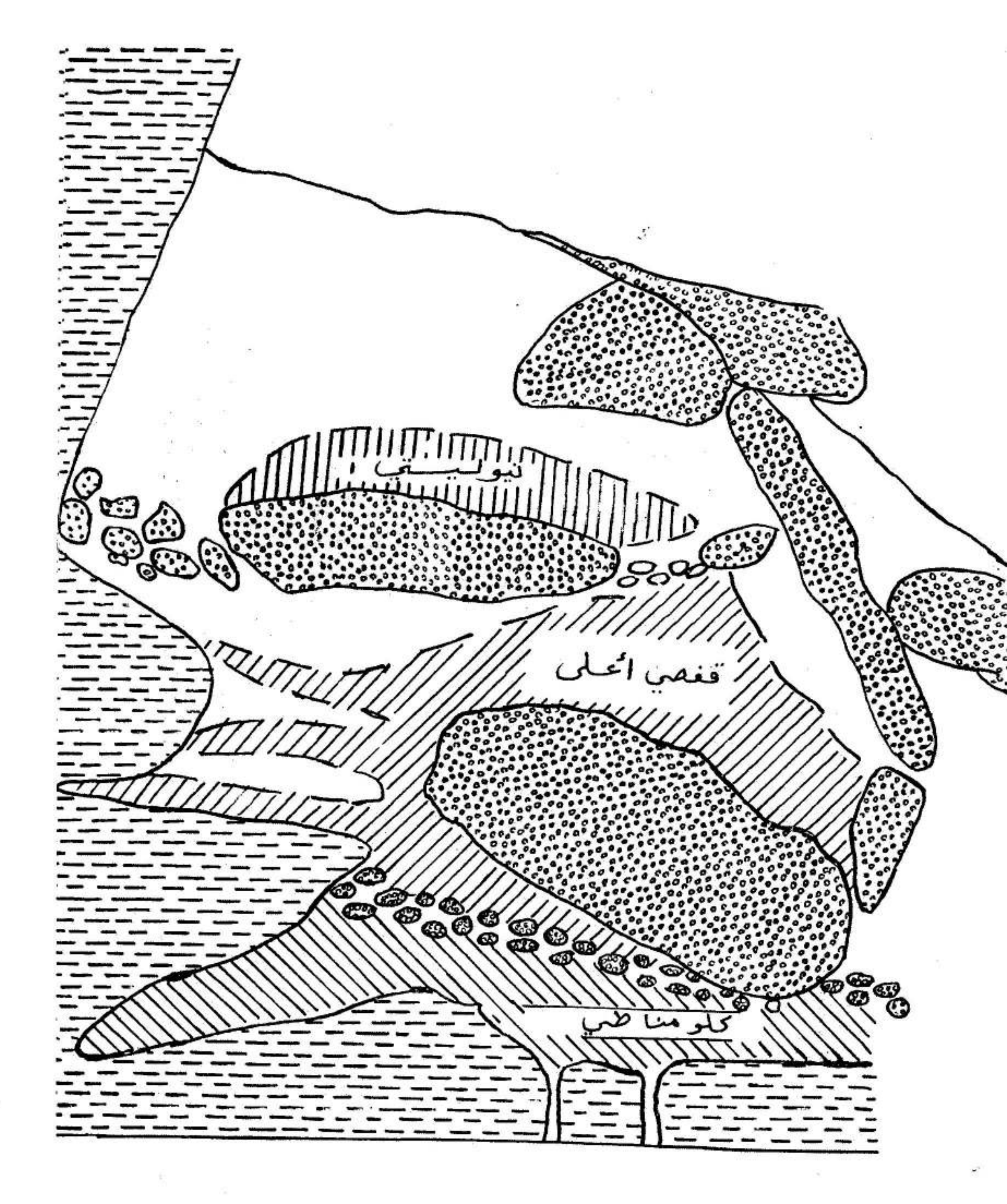
ان المواقع ليست دائما ملائمة ، ذلك ان الاستقرار في بعض الاحيان كان طويلا ومتواصلا ، فتغيرت طبيعة الأدوات الأثرية تبعا لذلك فيما بين بداية ونهاية الاستقرار . ولا يتاتى ادراك هذا التطور وتتبعه بدقة الا اذا جرت الحفرية في صورة تنظيف شرائحي يتراوح ما بين 2 و 5 سم . وعلى امتداد عدة أمتار مربعة أخرى من العمق ، وهذا ما يعبر عنه بكون الحفرية قد جرت في صورة أستراتيغرافية اصطناعية .

تتكون أدوات التنقيب المستعملة من طرف رجل آثار ما قبل التاريخ خاصة من فراشي صغيرة ، وأدوات شبيهة بالتي يستعملها طبيب الأسنان ، وهي مخصصة لازالة ما علق بالوثائق من زوائد ، الى جانب المتر والخيط ذي الرصاصة والمستوى ذي النقطة ، ثم المناخل الدقيقة . وكل هذه الأجهزة متواضعة المبلغ .

دراسة الوثائق :

تشتمل الدراسة على تعريف وتحليل وترتيب منتوجات الحفرية .

ان يجب ان تصنف الأسلحة أو الأدوات الحجرية (صناعات حجرية) والعظمية (صناعات عظمية) حسب اشكالها كما يمكن تحديد تقنية صناعتها . ولقد تم تحديد لكل فترة من فترات ما قبل التاريخ أصناف من الأدوات المتميزة ، وبالامكان تعريف معظم الأدوات المكتشفة اعتمادا على القوائم التيبولوجية الموضوعة لهذا الغرض ، وهو ما يمكن من القيام بعرض الوثائق الحجرية او العظمية المكتشفة في حفرية ما على تحليل احصائي، يترجم ، في صورة نسب مائوية ، أهمية هذه الأدوات أو تلك ، وهذه المجموعة او الاخرى من الأدوات . واخيرا يمكن ابراز هذا التحليل الاحصائي في لوح بياني تحت شكل منحنيات او خطوط بيانية يمكنها ان تقدم لنا صورة عن الصناعات الماخوذة بعين الاعتبار . وقد تفضي مقارنة الألواح البيانية



شكل 1 . رسم لاستراتيغرافية موقع كلومناطة (تيارت) في القسم الجنوبي كل طبقة معزولة عن الاخرى برمال خالية من الوثائق او بأكوام من الحصى .

بعصها الى جمع (شكل 2) أو تفريق (شكل 3) جذري بين صناعتين أو اكثر .

يتم تحليل الوثائق المستخرجة بمواصفات قرائنا من الوثائق الأخرى . وذلك عندما تكون هذه الأدوات غير قابلة للتصنيف ، كقطع المواد الملونة ، وعناصر الزينة (أصداف مصقولة أو مثقوبة الخ ..) . بعض الوثائق مثل قطع بيض النعام وأواني الفخار تحمل أحياناً زخارف . ان كل هذه الأنواع من الزخارف قد صنفت ، فينبغي اذن تمييزها . يقوم تحليل الأواني الفخارية الى جانب تعريف الزخرف ، على تقنية الصناعة وكيفية الشوي وعلى الشكل الخ ...

ينبغي اذن اخضاع الوثائق المتحصل عليها الى عملية وصف علمي حتى تستخرج منها جميع المعلومات الممكنة .

لكن معرفة حضارات ما قبل التاريخ تظل جزئية جدا اذا اقتصر الأمر فيها على تحليل الأدوات وحدها . ومن ثم فانه من الممكن إستخدام عناصر أخرى من المعلومات منها :

ان عظام الحيوانات يمكن تحديدها ، وهو أحد اختصاصات علم باليونتولوجيا الحيوان ، وتسمح هذه التحديدات بالتعرف على أنواع الحيوانات التي اقتنصها الانسان واستهلكها في مختلف العصور . وان ظهور او انقراض فصيلة ما له اهمية كبرى في تحديد التغيرات المناخية التي حدثت ، ومن ثم ما حدث بعد الحجري الأوسط من انقراض الكركدن ، وهو حيوان مكيف مع البرودة ، أمر يدل على ارتفاع درجة الحرارة في اقليمنا طيلة المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم .

ومعرفة المناخات القديمة يمكن أن تضبط هي الأخرى بواسطة تحديد نباتات ما قبل التاريخ ، وذلك بفحص تعضيات النبات (فلور) المتحجرة المكتشفة في الرسوبات ، وكذلك بتحديد أصناف الخشب الذي استعمل في الموقع ووصلنا في صورة فحم خشبي (صورة 2) . ويدرس علم البالينولوجي تعضيات النبات المتحجرة ، اما علم الباليوبوتانيك فمجاله تحديد أصناف النباتات انطلاقا من الفحم الخشبي ، وهو يحاول من جهة أخرى ، اعتمادا على البالينولوجيا ، ابراز الاطار النباتي بالنسبة لاقليم ما ، وفي مرحلة زمنية معينة .

اذا كانت دراسة الفلور (النباتات) والفونا (الحيوانات) المتحجرة تساهم في معرفة المناخات القديمة ، فان دراسة الترسبات التي تحتوي عليها الحفرية لا ينبغي اهمالها ، اذ يحدث أحيانا العثور ضمن تعاقب الطبقات على تعاقب مراحل مناخية متنوعة : جافة ، باردة ، رطبة ، الخ .. وفعلا ان هذه المراحل كانت غالبا ما تمتاز بالتغيرات في أساليب التعرية وتصدع الصخور ، وهو ما تمكن قراءته على مقطع استراتيغرافي .

لقد ترك تغير مستوى سطح البحر في المناطق الساحلية خلال العصور القديمة علامات على الرفارف في شكل شواطيء متحجرة وكثبان متينة ، وهي امور تساعد كثيرا في ابراز الحياة الجيولوجية الماضية لاقليم ما .

ومعلوم ان من مهام عالم ما قبل التاريخ تمييز الحضارات التي يدرسها ، ولكن عليه ، وفي حدود الامكان أن يحدد لها مكانا في الكرونولوجي ، وأن يؤرخها . ويمكنه القيام بهذا العمل اعتمادا على طريقتين اثنتين : تتمثل الأولى فيما يسمى بالتاريخ الكرونولوجي النسبي القائم بالخصوص على الطبقات الاستراتيغرافية التي تسمح بترتيب الحضارات بالنسبة لبعضها حسب موقعها في السلم الكرونولوجي . ففي نموذج كلومناطة (شكل 1) مثلا أمكن القول بأن « الكلومناطي » أقدم من القفصي الاعلى وهو نفسه اقدم من النيوليتي (العصر الحجري الحديث) . اما الثانية فهي الكرونولوجي المطلق الذي يسمح بتاريخ طبقة أولقية أو صناعة ، وتقوم هذه الطريقة على المبدأ التالي :

جميع المواد العضوية (شجرة ، محارة ، كائن حي = بشري مثلا) تتمثل في حياتها كمية من الفحم 14 ، والذي نضيره فحم 12 . وعند الموت (موت الكائن العضوي) فان الفحم 14 الذي لم يبق متمثلا ، ياخذ في التفكك بسرعة معروفة . وهو ما يمكن من معرفة تاريخ وفاة الكائن العضوي بقياس اشعاع الفحم 14 الموجود في عينة ما (قطعة فحم مثلا) ، والتاريخ المتحصل عليه في هذا المثل هو تاريخ قطع الخشب .

غير ان هذه الطريقة محدودة ، لانه عندما يكاد يتفكك الفحم 14 نهائيا تصبح المقاييس متعذرة . ومن ثم لا يعطي التاريخ بطريقة الفحم 14 نتائج لاكثر من ثلاثين الف سنة قبل الميلاد . وهناك طرق اخرى اليوم تمكن من تجاوز معتبر لهذه الحدود الزمنية .

وتعد العظام البشرية افضل الوثائق التي عثر عليها في حفريات ما قبل التاريخ (صورة 3) . ذلك أنه قد تعاقبت على أرضنا خلال ملايين السنين التي سبقت ظهور الانسان الحالي اشكال متنوعة من البشرية . ويساعدنا علم بقايا الانسان المادية والجسمانية (باليونتولوجيا الانسان والانتروبولوجيا الفيزيقية) على دراسة هذه الأشكال وتصنيفها قصد العثور على المسيرات المعقدة التي اجتازها النوع البشري منذ الثدييات أواخر الزمن الترتياري الى الشعوب الحالية .

لقد شهدت معرفة انسان ما قبل التاريخ تقدما ملحوظا في السنوات الأخيرة . ويمكننا الآن ان نجري أحصاءا لأنواع مختلفة من انسان شمال افريقيا الذي سكن بلادنا وربما أمكننا ايضا ان نستشف من خلال ذلك العلاقات التي كانت تربط بينهم ، بل ان الباليونتولوجيا التي هي علم في

تقدم مستمر ، تستهدف ، اعتمادا على تحليل تشوهات الهياكل العظمية المتحجرة ، تحديد الأمراض او الحوادث التي يحتمل ان بشر ما قبل التاريخ كانوا ضحيتها . هكذا تضاف الى الصورة النظرية نسبيا التي تقدمها لنا الباليونتولوجيا صورة لبشرية عادية عانت من مرض المفاصل وتسوس الأسنان .

يتضح اذن ان علم آثار ما قبل التاريخ عبارة عن تحري حقيقي ، تقوم طبيعته على تحليل اقل الدلائل الأثرية ومقارنتها ببعضها بهدف التوصل الى منهج مترابط للتفسير . ولكي يؤدي هذا العلم الحديث مهامه ، يحتاج الى علوم اخرى مساعدة لا يزال دورها متزايدا فى تقصي هذا الماضي الممتنع عن النصوص .

غير ان الدور الأساسي الذي تلعبه الوثائق المادية فيه تنوع بالنسبة للمراحل المتاخرة من عصور ما قبل التاريخ ، بعد أن ظهرت شواهد أخرى ليست مرتبطة مباشرة بالحياة المادية وبالتحكم فى موارد الطبية . ويمكن القول ان النقوش والرسوم العائدة لأواخر العصر الحجري القديم وخاصة الحديث (نيوليتيك) هي كتابة ، مع انها ليست ابجدية ، تدفع الى ادراك مغاير لما تتضمنه الوثائق المادية . وقد جرت محاولات لفك رموز فن ما قبل التاريخ هذا فى جهات أخرى من العالم . واذا كانت نتائج هذه المحاولات ليست دائما مرضية فانها جديرة بأن تدفعنا الى البحث خارج الطرق المعتادة والأحكام المسبقة عن معنى لعله يكون خارج ادراكنا .

تسهيلا للادراك ، قسمت مدة ما قبل التاريخ الطويلة جدا الى شرائح كرونولوجية كبرى تناسب التغيرات الهامة التي حدثت فى المجال البشري ، وفى انماط المعيشة وفى الشروط المناخية ، وفى التقنيات .

جزئي الباليوليتيكي ، وهو العصر الحجري للقديم الى :

- باليوليتي اسفل
- باليوليتي اوسط
- باليوليتي متاخر

اما النيوليتي ، وهو العصر الحجري الحديث ، يعد رديء التسمية ، اذ ان الحجارة كمادة اولية آنذاك ، قد تعرضت لمنافسة الطين . ويحتمل أن ظهور الفخار مرتبط بظهور الرعي والزراعة .

اما فجر التاريخ الذي يختم عصور ما قبل التاريخ ، فهو مرحلة غير محدودة ، ومعرفتها رديئة . لقد اتصفت بالتخلي التدريجي عن الأدوات الحجرية وبظهور المعادن وتطور المقابر الميغاليتية الكبرى . اما الكتابة التي

شهدتها بلادنا آنذاك فهي الليبية التي توصل العلماء الى، فك رموزها دون أن يسيطروا على فهمها . وتكون الروايات الأدبية المنسوبة لمؤلفين اجانب (اغريق ولاتين) مصدرا جديدا حول تلك الفترة .

العصر الحجري الأعلى

حضارة الحصى المنحوتة :

تم العثور على أقدم الأدوات (أو الأسلحة) التي صنعها البشر فى كثير من مناطق العالم وخاصة فى افريقيا .

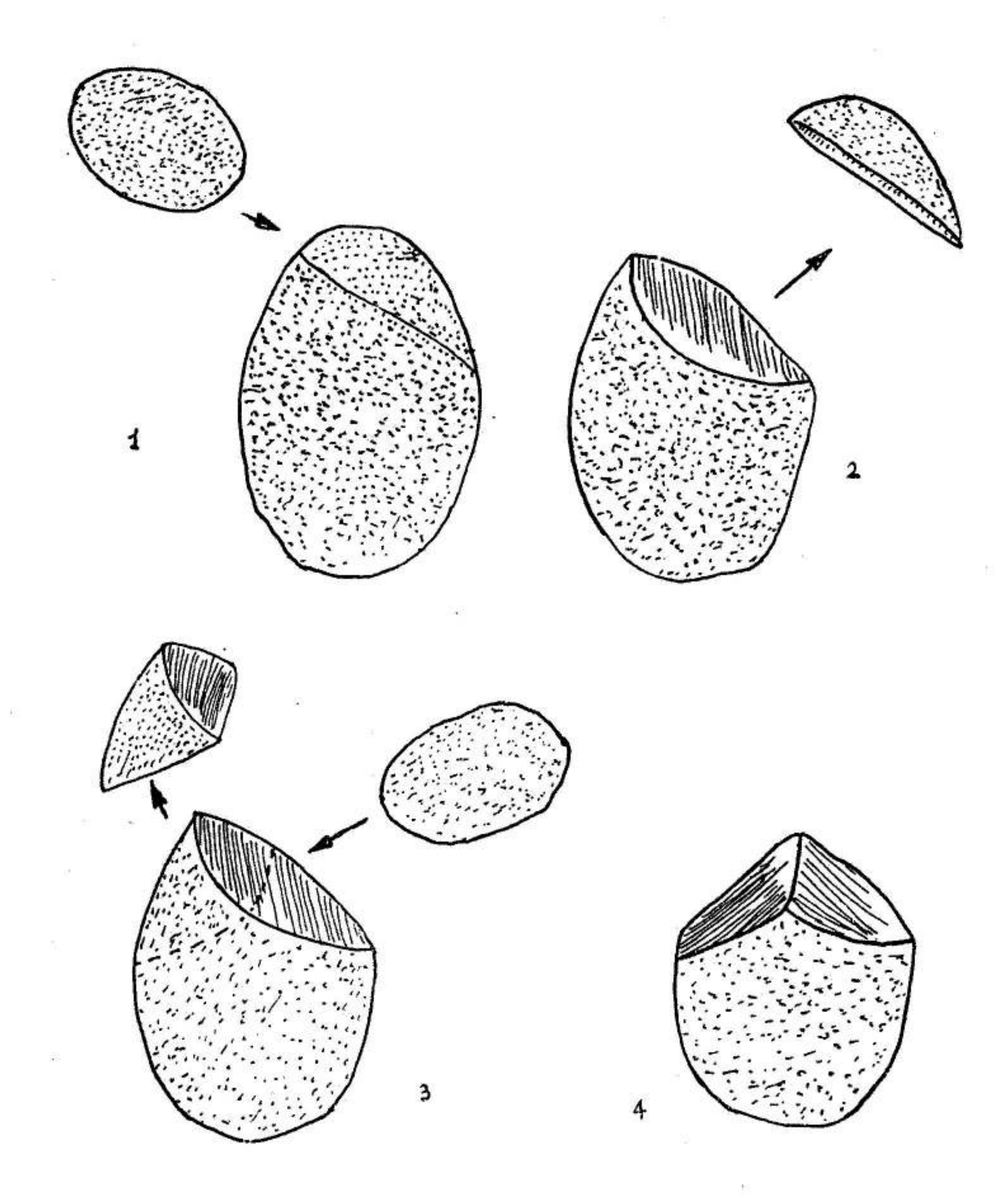
من المحتمل أن الناس كانوا يستعملون فى البداية الحجارة أو الأغصان الموجودة فى الطبيعة لكنهم شعروا بالحاجة فى وقت ما الى نحت تلك الحجارة ، وهي عموما فى شكل حصى ، كي تصبح أكثر فعالية .

وتقوم عملية نزع الزوائد اعتمادا على مراعاة محور واحد أو محورين متقابلين . ويحصل الصانع فى جميع الحالات على قاطعة ، قد لا تكون منتظمة دائما ، ولكنها فعالة (شكل 4) .

وعندما تجري عملية التشذيب فى اتجاهات عديدة يمكن أن تأخذ الحصاة شكلا كرويا متعددا الوجوه .

لقد عثر فى الجزائر على مثل هذه الحصى ، خاصة فى اقليم قسنطينة (منصورة) وفى الصحراء (رقان ، وادي السالورة ، فى اقليم عين صالح) ، وعثر فى عين حنش (العلمة قرب سطيف) على كرويات متعددة الوجوه ضمن رسوبات تعود الى أوائل الزمن الرباعي (كواتيرنير) .

وعثر المنقبون أيضا فى مغارات الساحل الأطلسي المغربي على حصى منحوتة ، بينما لم يعثر لحد الآن على ما يماثل هذا فى تونس .



شكل 4 : ـ صناعة حصى منحوتة اعتمادا على محورين : رسم نظري
1) الطرقة الاولى .
1) نزع شظية أولى .
3) الطرقة الثانية فى اتجاه يعاكس الاتجاه الاول ، ونزع الشظية الثانية .
4) الحصى المنحوتة هنا تظهر فيها قاطعة .

أما الانسان الذي صنع مثل هذه الحصى فلم يعثر له على أثر لا فى المغرب ولا فى الصحراء بينما اكتشفت فى افريقيا الجنوبية والشرقية بقايا هياكل بشرية صحبة حصى منحوتة . انها أقدم أشكال خلفها البشر. حتى انه خلال الاكتشافات الأولى نسبت هذه البقايا الى قـرد سمي أوسترالوبيثك (أي قرد الجنوب) . ولا تقوم معلوماتنا اليوم على الأدوات التي كان يصنعها ولكن أيضا على هيئة هيكله العظمي ، وعلى الرغم من صغر حجم جمجمته (ما بين 450 الى 700 سنتمتر مكعب) فان الاسترالوبيثيك ، ورغم اسمه كان انسانا يمشي بعد على قدمين .

لم يكن هذا السماط البشري وحيد الفصيلة ، اذ نجد بعضا من الاوسترالوبيثيك أقوياء وآخرين أضعف منهم .

ويمكن الاعتقاد هنا أن صانعي أدوات عين حنش لهم علاقة قرابة ببشر الاوسترالوبيثيك الأفارقة .

الحضارة الاشوليـة :

أفضى التطور المتواصل فى صناعة الأدوات الى ظهور أشكال جديدة متميزة ، أمتازت بها حضارة جديدة : انها الأشولية التي استمدت اسمها من سانت أشول ، وهي احدى ضواحي مدينة أميان (فرنسا) ، حيث تم التعرف عليها لأول مرة .

يمكن تقسيم الأدوات الأشولية فى الجزائر الى ثلاثة أصناف رئيسية : البيفاص (ذات الوجهين) والبليطة ، وثلاثية الوجوه .

واضح أن تقنيات الصناعة الحجرية قد عرفت تطورا هي الأخرى بالنظر الى المرحلة السابقة .

وهذه الحضارة ممثلة بصورة جيدة فى الجزائر والمغرب الأقصى ، أما مواقعها فى تونس فهي أقل عدد (فى سيدي الزين قرب الكاف ، وفى قفصة) . تتوزع المحطات الاشولية فى الجزائر من الشرق الى الغرب ، نذكر من أهمها فى الشرق : موقع الماء الأبيض (تبسة) ، وفى الجزائر الوسطى هناك موقع شامبلان (العميرية بولاية لمدية) . ونذكر فى الغرب الوهراني موقعي بحيرة كرار واوزيدان (قرب تلمسان) ، وكذلك موقع تيرنيفين بالقرب من باليكاو . ومن مواقع الصحراء هناك موقع عرق تيهودين (طاسيلي ناجر) الذي توفر على الاف من البيفاص والبليطات . ونذكر من مواقع المغرب الأقصى مغارات سيدي عبد الرحمن بالقرب من مدينة الدار البيضاء ، ومغارات تيمارا بالقرب من الرباط .

الأدوات :

البيفاص (صورة 4) .

انها أدوات متنوعة الأشكال ، ولكن شكلها العمومي مستطيل ، يمتاز دائما برأس حاد وبحافتين قاطعتين . كانت البيفاص تصنع من حصاة كاملة أو من شظية كبيرة منفصلة من حصاة . ويحصل على الشكل العام للأدوات بواسطة نزع شظايا كبيرة من وجهي القطعة . ومن هنا سميت بيفاص .

وتشمل عملية التشذيب أحيانا جميع أوجه القطعة الحجرية ، ولكن الصانع كان يترك تارة قاعدة الأداة سالمة (وهي الجزء المعاكس للرأس الحاد) .

تميزت المرحلة الأشولية الطويلة بتطـور فى صناعة البيفاص التي اتجهت نحو انتقاء كبير أدى الى ايجاد توازن أحسن فى القطعة ، والى انتظام شديد فى حافتيها الحادتين . ويفسر بعض هذا الاتقان باستعمال

متزايد خلال هذه الفترة لقادحة طرية ، من خشب أو عظم ، من القادحة الحجرية الصلبة . ان القادحة الطرية تسمح بنزع شظايا أكثر رقة وهو ما يسهل استقامة القطعة بعد تشذيبها بقادحة صلبة . ولكي تميز صناعات البيفاص أفضل عمد المختصون فى ما قبل التاريخ الى تصنيف هذه الأدوات تبعا لأشكالها . ومن ثم أمكن تمييز البيفاص المثلثة الشكل ، واللوزية الشكل ، والتي تأخذ هيئة قلب ، والرمحية الشكل ، والبيضوية، والتي ، على صور أقراص ، الخ ..

البليطـات :

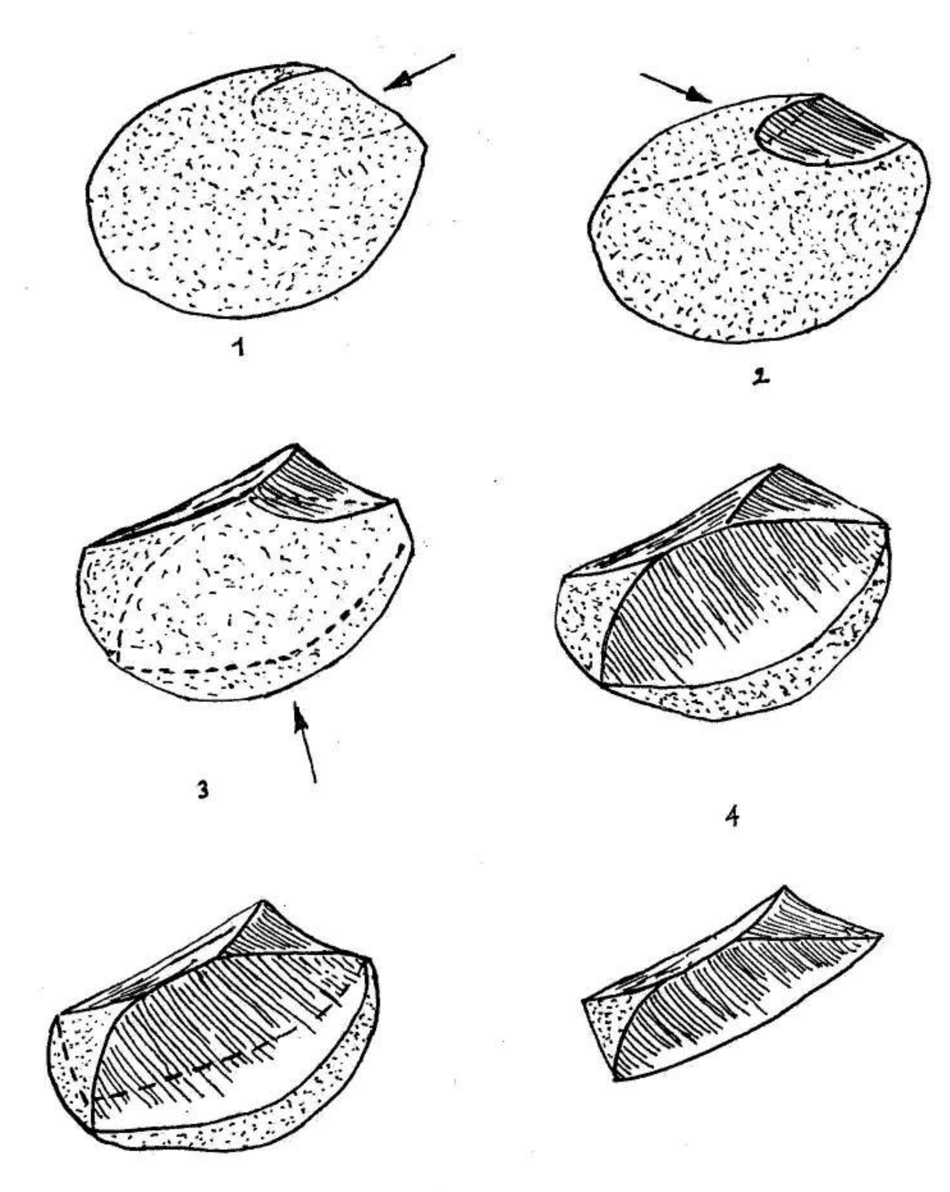
اذا كانت حافتا البيفاص تتصفان بالتناظر النسبي ازاء محور القطعة ، فان البليطة أداة ذات حواف مستعرضة تأخذ اتجاها عموديا على محور القطعة الكبير . ومن جهة أخرى فانه على عكس مواصفات حرفـي البيفاص المتحصل عليهما بلمسات مقصودة على الجانبين أو جعلهما أحيانا مستقيمتين بواسطة القادحة المرنة ، فان حرف البليطة ذو شروم ، لم ينله تهذيب أبدا .

وتفسر هذه الخصائص اعتمادا على التقنية التي أتبعت فى صناعة هذه الأدوات ، تلك التقنية التي تطلبت ادخال سلسلة من العمليات المتعقدة ، هذا وصفها :

— اعداد الوجه الأعلى بواسطة نزع شظايا عديدة من الحصاة تبعا لاتجاهات منطلقة من المركز .

— قطع شظية كبيرة تكون البليطة (شكل 5) .

ويتحصل على الحرف المستعرض اذن باتصال السطحين ، سطح الوجه الأعلى بسطح الوجه الأسفل . ويمكن اخضاع البليطة المصنوعة الى تشبيهات مناسبة تجعل حواغها منتظمة وقاعدتها أكثر رقة . ولكن هذه التشذيبات لا تصيب شكل الأداة بتغيير عميق .



شكل 5 : ــ صناعة بليطة : رسم نظري .
1) القطع التمهيدي الذي يكون قاطعة الأوتاد .
2) . 3) . 4) القطعات الجانبية التي تعطي البليطة شكلها العــام .
5) القدح الذي يفصل البليطة 6) التي تصبح قابلة للاستعمال .

فالبليطة هي اذن أداة يحدد شكلها العــام مسبقا ، وتسمح الطرقة الأخيرة التي تفصلها عن الحصاة (أو النواة) بالحصول على أداة صالحة للاستعمال .

وتوجد بمنطقة تابلبالة ــ تاشنغيت نماذج من البليطات ذات هيئة أنيقة خاصة بهذه المنطقة . تم الحصول على هذه الهيئة أيضا انطلاقا من اعداد الحصاة النواة . الا أن هذا الاعداد كان أكثر تعقيدا من الذي سبق وصفه .

ثلاثية الوجــوه :

ان هذا النوع من الأدوات الأشولية أقل وفرة من البيفاص والبليطات، وهي ذات نهاية حادة وقاعدة مثلثية . كان صانع ما قبل التاريخ هــذه النهاية بواسطة نزع شظايا فى ثلاث اتجاهات أو أكثر .

الانسان الآشولي :

على الرغم من تعذر العثور الى حد الآن على بقايا الأوسترالوبيثيك فى بلاد المغرب فان عددا من مواقع الجزائر والمغرب الأقصى قد انكشفت للمهتمين بما قبل التاريخ عن بقايا كائنات بشرية ، هي لصناع البيفاص والبليطات . ولقد أطلق على هؤلاء الأشوليين اسم أطلانتروب ، أي انسان الأطلس .

كما احتوت رملية تيرنيفين بالقرب من باليكاو (الجزائر) على بقايا فونا قديمة ، تعود الى أوائل الزمن الرابع ، مصحوبة بأدوات أشولية وبقايا بشرية نسبت الى انسان أطلانتروبوس موريطانيوكوس (أي انسان الأطلس الموريطاني) . وتتكون هذه البقايا من ثلاثة فكوك سفلى فى حالة جيدة ، وجزء من جــدار الجمجمة ، وبعض الأسنان المفككة (صورة 5) .

أما الوثائق البشرية الأخرى العائدة الى انسان الأطلس فقد اكتشفت بالمغرب الأقصى وتتمثل فى قطعتين من فك أسفل ، عثر عليهما فى ردوم احدى المغارات (مغارة ليتورين) من المقالع الحجرية بسيدي عبد الرحمن على بعد بضع كيلومترات من مدينة الدار البيضاء .

وعثر فى مقلع للحجارة الرملية بالقرب من الرباط على بقايا لقوس جمجمة وبقايا لفك أعلى وفك أسفل شبه كامل . كما عثر فى مغارة المهربين بتيمارا (على بعد 10 كيلومترات جنوب غرب الرباط) على فك أسفل شبه كامل . وأخيرا تم العثور حديثا على فك أسفل فى مقلع طوماس بجنوبي الرباط .

تعود جميع هذه المتحجرات البشرية الى مجموعة انسان الأطلس . غير ان وثائق المغرب الأقصى ، باستثناء فك مقلع طوماس ، يمكن أن تكون أحدث من مكتشفات تيرنيفين ، وهكذا يبدو أن أناس الأطلس المغربي قد كونوا مجموعة انتشرت أثناء قسم من العهد الأشولي . وتحتوي بقاياهم على صفات مشابهة لمتحجرات تعود الى نفس العصر ، اكتشفت فى الصين (سيناتروب) وفى جاوا (بيثيكانتروب) ، وفى افريقيا بموقع أولدواي (طنزانيا) .

تتصف نماذج انسان بيثيكانتروب بخصائص متشابهة . جماجمها مستطيلة (مفلطحة) ومسطحة . محاجر العيون فيها محاطة ببروز عظمي متين . الفك الأسفل قوي ، والذقن بارز . أما الأسنان فهي من النوع القديم ، اذ تتسم بالضخامة خاصة منها الطواحن ذات الجذور العميقة .

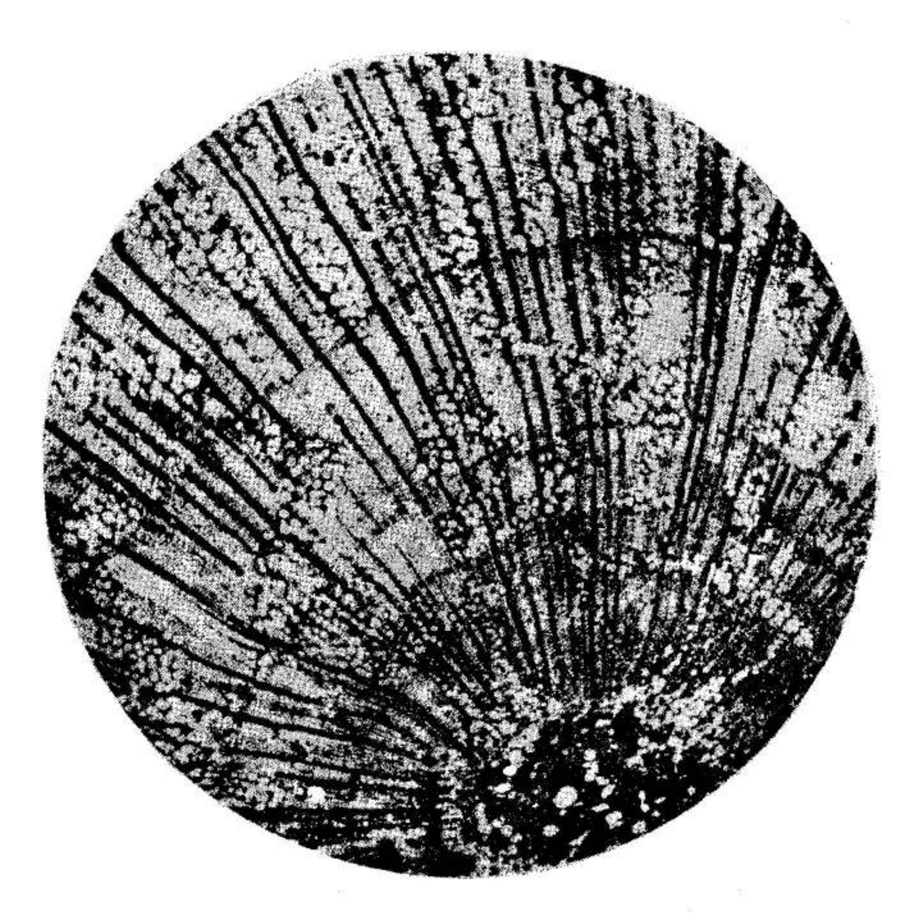
ليس من السهل معرفة الاطار المناخي ، والوسط (فونا — فلور) الذي كان يعيش فيه بشر العصر الحجري الأسفل ، وخاصة انسان الأطلس ، غير أن الفونا المكتشفة فى عين حنش وفى مقالع المغرب الأقصى، وفى تيرنيفين ، تسمح بوضع مخطط أولي للوحة ستظل ناقصة وباهتة .

ان فونا عين حنش المعاصرة لصناع الحجارة مختلطة ، فهي تتضمن أصنافا متأخرة من الزمن التيرتياري ، وأخرى معروفة فى الزمن الرباعي (كواتيرنير) . ولقد أعطت الفونا الأولى طابعا قديما لفونا أوائل الرباعي .

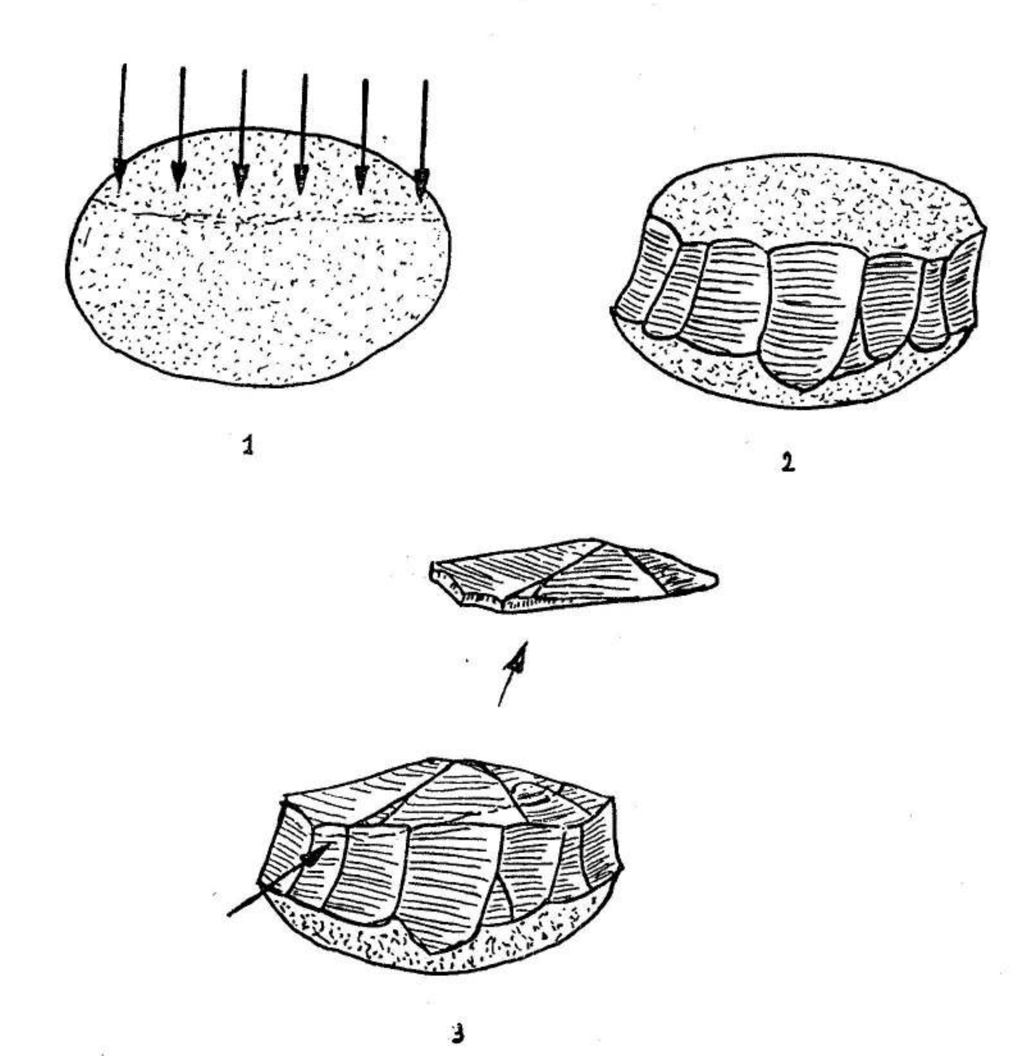
انقرضت أصناف الزمن الثلاثي (تيرتيير) فى المواقع الأشولية ، وخاصة منها فى مواقع تيرنيفين ، وأصبحت الحيوانات مكونة فى معظمها من فونا السفانا الافريقية كالفيلة والكركدنيات البيضاء وحمير الزرد وأفراس البحر والظبي والزرافات ، ومن آكلات اللحوم كالأسود والفهود والضباع والذئاب والدببة ، الخ ..



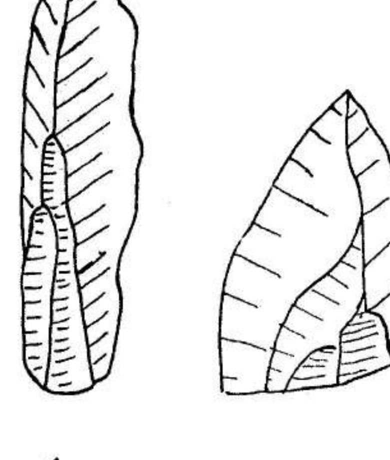
صورة 1 : ـ حفريات بموقع كلومناطة « تيارت » . مربعا الحفرية محددة بخيوط ممدودة : وهو التربيع . هنا نموذج تربيع مركب . أفقي ومائل « تبعا لميل الطبقة » يظهر جيدا في المربع الموجود أعلى الشخص وعلى يساره .

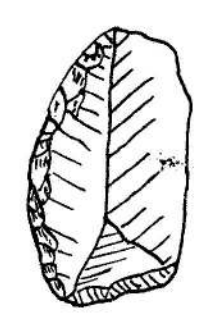


صورة 2 : ـ صورة فوطوغرافية لشريحة رقيقة من فحم ما قبل التاريخ أخذت بواسطة مكبر (ميكروسكوب) . يسمح تحليل مثل هذه المقاطع بتعريف الفحم .



شكل 6 : التقنية اللوفلوازية : رسم نظري لنزع شظية .
1 ـ 2) قطع أولي دائري لحصاة .
3) سلسلة من التشبيهات على السطح العلوي للحصاة والطرق الذي يؤدي الى نزع الشظية .





1 2 3 4

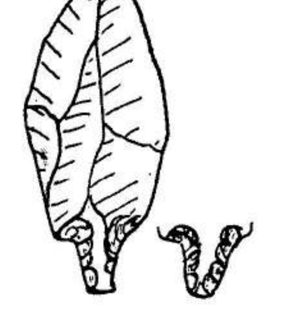
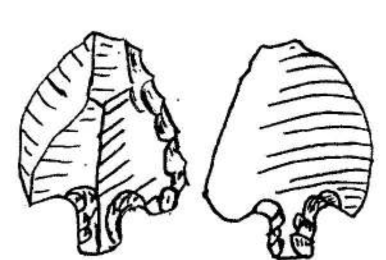
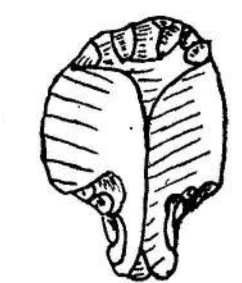
شكل 7 : ادوات موستيرية .

1) شفرة لوفلوازية .

2) شظية لوفلوازية .

3) مخرز موستيري .

4) مكشـــط .

شكل 8 : أدوات عاترية مذنبة .

1) مخـــرز .

2) مكشــــط .

3) محـــك .

التي هي حرشفية غالبا ، حرفا أو اثنين . أما المحك فكان يصنع بتوجيه طرقات شبه عمودية تعطيه شكل قوس فى نهاية الشظية أو الشفرة .

لكن أصالة الصناعة العاترية تكمن فى أن الصناع قد جعلوا لبعض أدواتهم ذنيبات (شكل 8) . وقد تحصلوا على هذه الذنيبات (التي لا يظهر دائما نفعها بوضوح) باحداث تحزيزات فى قاعدة الأداة .

البشر وبيئتهم :

يضاف الى جهلنا بصنائع الحصى المنحوتة مـــن الاوسترالوبيثيـــك جهلنا الكبير بصناع القطع الحجرية المذنبة فى شمال افريقيا . فعلا ، انه على الرغم من كثـــرة المواقع العاترية لا يوجد من بينها موقع احتفظ ببقايا بشرية .

وكان الأمر كذلك الى وقت قريب بالنسبة للمواقع الموستيرية القليلة ، اذ لم يعثر سوى مؤخرا بمغارة جبل ارحود (المغـــرب الأقصـــى) على جمجمتين وجزء من جدار جمجمي ضمن أدوات موستيرية متميزة تعود الى انسان نياندرطال (صورة 6) .

تظهر الملامح العامة لانسان نياندرطال بوضوح فى متحجرات جبل ارحود . الجمجمة قصيرة ومستطيلة . يقترب حجمها من 1500 سم3 وهو أدنى من حجم جمجمة مثيله فى أروبا . محاجر العيون كبيرة ، مستديرة ومتباعدة ، يعلوها بروز عظمي متواصل يمتد الى جـــانبي الوجه . الجبهة قصيرة ومتراجعة . الفك الأعلى متقدم . ويتصف فص الدماغ الخلفي بالانبساط والاستطالة مكونا عقصة حقيقية . وهناك بروز عظمي سميك يحدد منطقة التحام عضلات القفا .

ان ما اكتشف بجبل ارحود لذو أهمية كبرى . ذلك أنه يكمل سلسلة المتحجرات البشرية التي تكون ، انطلاقا من انسان الأطلس الى الانسان العاقل ، الأساس الانثروبولوجي لمغرب ما قبل التاريخ .

العصر الحجري الاوسط

اننا لا نعرف سوى القليل عن الشروط الطبيعية التي عاش فيها أناس العصر الحجري الأوسط • غير أن فونا وفلور هذه المواقع تعطينا بعض الدلائل •

لقد أعقبت الفــونا المسماة « تشـــادي — زمبيزي » العائدة الى الباليوليتيكي الأسفل (العصر الحجري الأسفل) ، فونا عاشت على الخصوص فى الغابات المتوفرة على أعشاب السفانا ، ومنها الايلة (الوعول) والخنازير والدببة والكركدنيات وأفراس البحر والفيلة الخ ..

يحتمل أنه قد طرأ على المناخ تغير خلال تلك المرحلة الطويلة • ويبعث تنوع الفاور فى موقع القطار (قرب قفصة) تبعا للمستويات الأثريـــة على التفكير فى أن المناخ كان دافئا رطبا فى بداية العمران بالموقع ، ثم تحول فى نهايته الى مناخ أكثر جفاف وبرودة •

وفى هذا الاطار ، فانه على الخلاف الكبير مع الوقت الحاضر ، كان الناس يقتاتون من الصيد ، وفى الشواطيء على جمع القواقع . ولقد قدم لنا موقع الخنازير (بحيدرة) كمية كبيرة من عظـــم الحيوانات المستهلكة من طرف سكان الموقع . وضمن كتلة العظام التي تصلبت مع الزمن حتى أصبحت أكثر متانة من الصخرة ، يمكن التعرف على ما يلي : الخنازير ، الكركدن ، الضربان (الشيهم) ، الجاموس القديم ، وبعض الحيوانات المفترسة الخ ..

وتوجد بعض المواقع على الساحل بالقرب من عين تاقورايت (بيرار) عثر فيها على رخويات صدفية (سميت ببساطة عظاما) استهلكت من طرف العاتريين •

تلت الحضارتين الموستيرية والعاترية مجموعة أخرى من الحضارات المتشابهة فيما بينها ولكنها أصيلة . لقد تطورت معظم هذه الحضارات خلال العصر الحجري ، مما أهلها لأن تكون حضارات العصر الحجري المتأخر . وقد انتشرت فى المغرب كما تغلغل بعضها داخل الصحراء وفى المناطق المحاذية لها .

يمكن جمع هذه الحضارات ضمن ثلاث عناوين عامة هي :

- الحضارة الايبيرو ـ مغربية .
- الحضارة القفصية .
- حضارات أخرى لا تنتمي لأي من المجموعتين السابقتين .

أما البشر أصحاب هذه الحضارات فهم من فصيلة الانسان العاقل المتحجر المختلف عن سلفه انسان نياندرطال . غير أن هناك عدد من المميزات موجودة ضمن هذا الصنف ، وخلال مرحلة العصر الحجري المتأخر ظهر نوعان مختلفان فى المغرب من الانسان العاقل : أولهما هو المعروف بانسان مشتى العربي (أو مشتى أفالو) ، وثانيهما الانسان المعروف بما قبل المتوسطي .

يمثل العصر الحجري المتأخر ، فيما عدا بعض التنوعات ، مميزات عامة جديرة بالوصف . شهد العصر الحجري المتأخر ، وهو مرحلة الانسان العاقل ، ازدهار حضارات اشتهرت فيها صناعات حجرية دقيقة تمتاز بالتخلي عن التقنية اللوفلوازية فى اعداد النواة وبالدور الهام الذي لعبته الشفرات والنصال العادية والدقيقة ضمن الأدوات . كما أبرزت هذه الأدوات الخفيفة تنوعا كبيرا بالمقارنة مع ما عرف عن آدوات الحجري الأوسط . وظهرت خلال هذه المرحلة على الخصوص أدوات

جديدة مخصصة للطحن ، وأخرى من العظم المصقول . كما ظهر استعمال بيض كأوعية ، بل استعمل كمادة خام حقيقية فى صناعة قطع الحلي .

وأخيرا ، فان مرحلة العصر الحجري المتأخر هي التي شهدت بوضوح كبير ظهور الطقوس الجنائزية وممارسة السحر وبداية الفن الذي سيعرف انطلاقة كبيرة خلال مرحلة الحجري الحديث (نيوليتيك) .

الحضارة الايبيرو ــ مغربية :

انها أقدم حضارات العصر الحجري المتأخر فى المغرب ، وتؤرخ بدايتها بحوالي 12،320 سنة قبل ميلاد المسيح فى موقع مغارة راسل (شنوة) . بينما يعود أحدثها الى حوالي الالف التاسعة قبل الميلاد . ولكن لا يوجد ما ينفي القول بقدم هذه الحضارة ، وتجاوزها لهذه البداية ، أو تواصلها فيما بعد الألف التاسعة .

تم اكتشاف هذه الحضارة فى بداية القرن الحالي ، وهي تستمد اسمها من نظرية قديمة تقول بأن هذه الحضارة قد وجدت فى كل من المغرب واسبانيا . غير أن هذه النظرية قد تجاوزها الزمن وتركت ، لكن التسمية ما تزال مستعملة .

ان مواقع الحضارة الايبيرو ــ مغربية كثيرة ، وتتوزع على طول سواحل المغرب ، من عمق خليج قابس الى الشواطيء الأطلسية ، مع اختفائها فى بعض المناطق (الساحل التونسي مثلا) . ومع أن هذه الحضارة ذات طابع ساحلي الا أنها توغلت أحيانا نحو الداخل (تيارت ــ بوسعادة) .

تم التعرف على نماذج من مخلفات الايبيرو ــ مغربية لأول مرة فى موقع قرب لاله مغنية بالجزائر ، وبالتحديد فى مخابيء المويلح . ومن بين مواقعها الهامة أيضا فى الجزائر نذكر كلومناطة (قرب تيارت) ، ومغارات تمارهات وأفالو بورمل (فى عمق خليج بجاية) ، ومغارة راسل بشنوة ، أما فى تونس ، فهناك مواقع وشتاتة ، وموقع وادي العكاريت (قابس) الذي لا يزال انتسابه الى الحضارة الايبيرو ــ مغربية محل نقاش . ونذكر أخيرا المغارة الهامة بتافورالت (شمال وجدة) بالمغرب الأقصى .

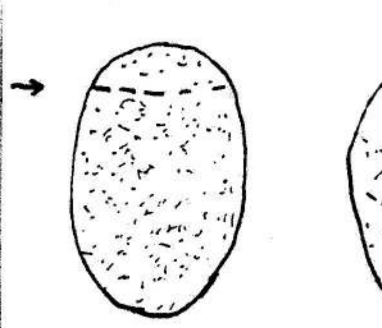
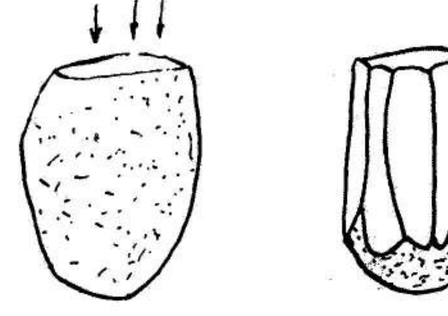
الأدوات :

ادوات حجرية :

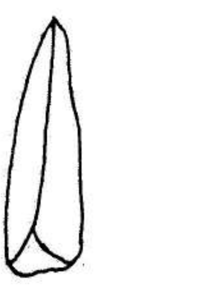
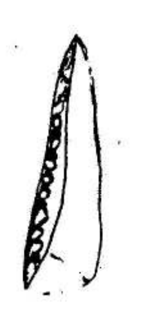
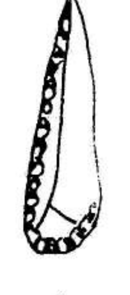
تتكون معظم الأدوات الحجرية المنحوتة من النصال المستخرجة من نوى الصوان الصغيرة التي يعد نحتها أبسط مما كان عليه الأمر فى العصر الحجري الأوسط . كان الصناع يكتفون بازالة احدى نهايتي الحصاة أو كليهما كي يحصلوا على سطح مستو يسمى مستوى الطرق وهو الذي يسهل قطع النصال (شكل 9) .

استعمل صناع الحضارة الايبيرو ــ مغربية أيضا الشفرات والشظايا ، ولكن بكميات أقل .

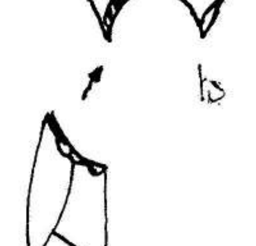
يتكون مجموع الأدوات عموما من نسب مختلفة من النصال . ولكن النسب دائما مرتفعة ، وهي ذات حد أعيد نحته بواسطة طرقات مائلة كونت منه حرفا مشذوبا ، أو ظهرا سميكا أحيانا . أما قاعدة النصلة فقد شذبت بصفة دائرية ، أو بترت تماما (شكل 10) . تتصف أوجه هذه النصال بالتنوع ، بينما يأخذ الظهر فيها شكلا مستقيما أو مقوسا أو محدبا .

شكل 9 : نواة ايبيرو مغربية ذات مستوى طرق واحد ، نزع النصال .

شكل 10 : نصال ايبيرو ـ مغربية.
ا) نصلة أولية .
ب) نصلة ذات حافة مشذوذة .
ج) نصلة ذات حافة مشذوذة وقاعة دائرية .
د) نصلة ذات حافة مشذوذة وقاعدة مبتوره .


شكل 11 : كسر نصلة بواسطة تقنية الازميل الدقيق .
ا) نصلة محززة .
ب) يظهر الازميل الدقيق بوجهيه بعد الكسر .

يعمد أحيانا الى كسر النصال تبعا لتقنية خاصة ، تدعي بتقنيه الازميل الدقيق (شكل 11) . وهي تتطلب استعمال قادح لاحداث تحزيزة على حافة النصلة ، وتعمق تدريجيا الى أن تنكسر النصلة تبعا لزاوية غير محددة . ينتج من ذلك جزء من النصلة وبقية تدعى ازميل دقيق . ولهذا الأخير شكل متميز جدا ، اذ يظهر على سطحه العلوي جزء من التحزيزة ، وعلى الجهة المقابلة وجها الانكسار فى شكل حلزوني . ويحتمل أن هذه التقنية كانت تستخدم قصد الحصول على نصال ذات نهاية حادة ، أو على أدوات دقيقة هندسية الشكل (أنظر ادناه ص 61) . ويلاحظ أن هذا الصنف الأخير من الأدوات قليل الوجود فى الصناعة الايبيرو ـ مغربية ، بينما هي كثيرة الانتشار فى الصناعة القفصية .

فضلا عن النصال ذات الحد المشذوب والأزاميل الدقيقة ، احتوت الصناعة الايبيرو ـ مغربية كذلك على المكاشط خاصة ، وعلى قطع محززة ومسننة (شكل 12) .

وعثر كذلك فى حفريات المواقع الايبيرو ـ مغربية على أدوات حجرية غير منحوتة ، خاصة منها المطاحن ، وهي الحصى المستعملة فى سحق مواد التلوين ، وربما كذلك فى طحن الحبوب البرية . وقد أدى عمل الطحن بالحك الى تغيير شكل الحصاة المستعملة ، فأصبحت مكورة ملساء . يضاف الى ذلك وجود سنديانات وهي حصى تحمل فى وسطها أمارات طرق متوالية .

ادوات من العظم المصقول :

يعتبر استعمال العظم كمادة أولية احدى مميزات حضارات العصر الحجري المتأخر . لقد استعملت فى باديء الأمر ، وحسب الحالات ، عظام طويلة مقسومة طوليا ، أو قضبان مفصولة من العظم . وقد شمل الصقل العظم كله أو جزءا منه ، واتصفت الأدوات المتحصل عليها تبعا

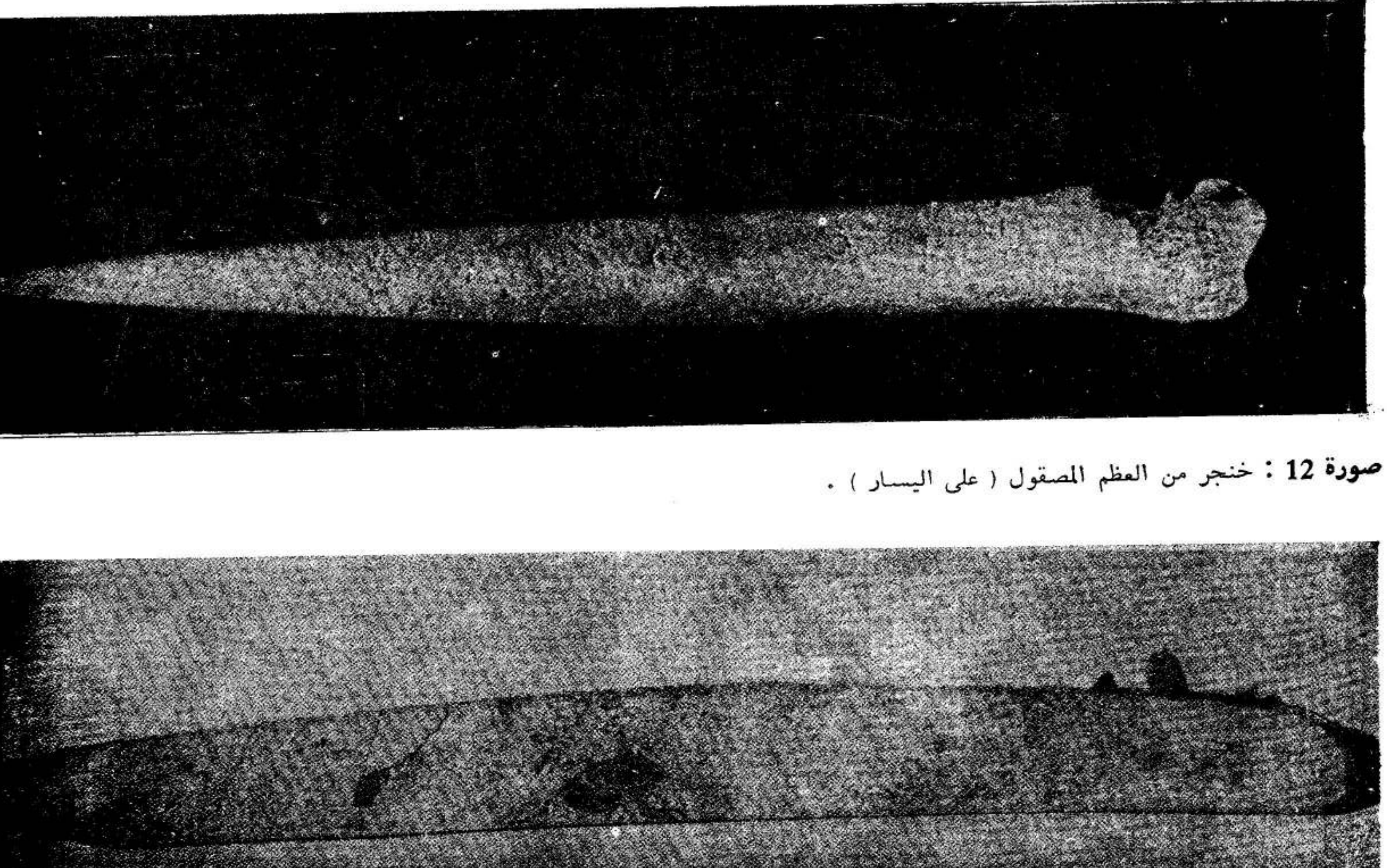
شكل 12 : نصال ايبيرو ــ مغربية .
ب) نصلة وشظية مسننة .
ا) نصلة وشظية محززة .



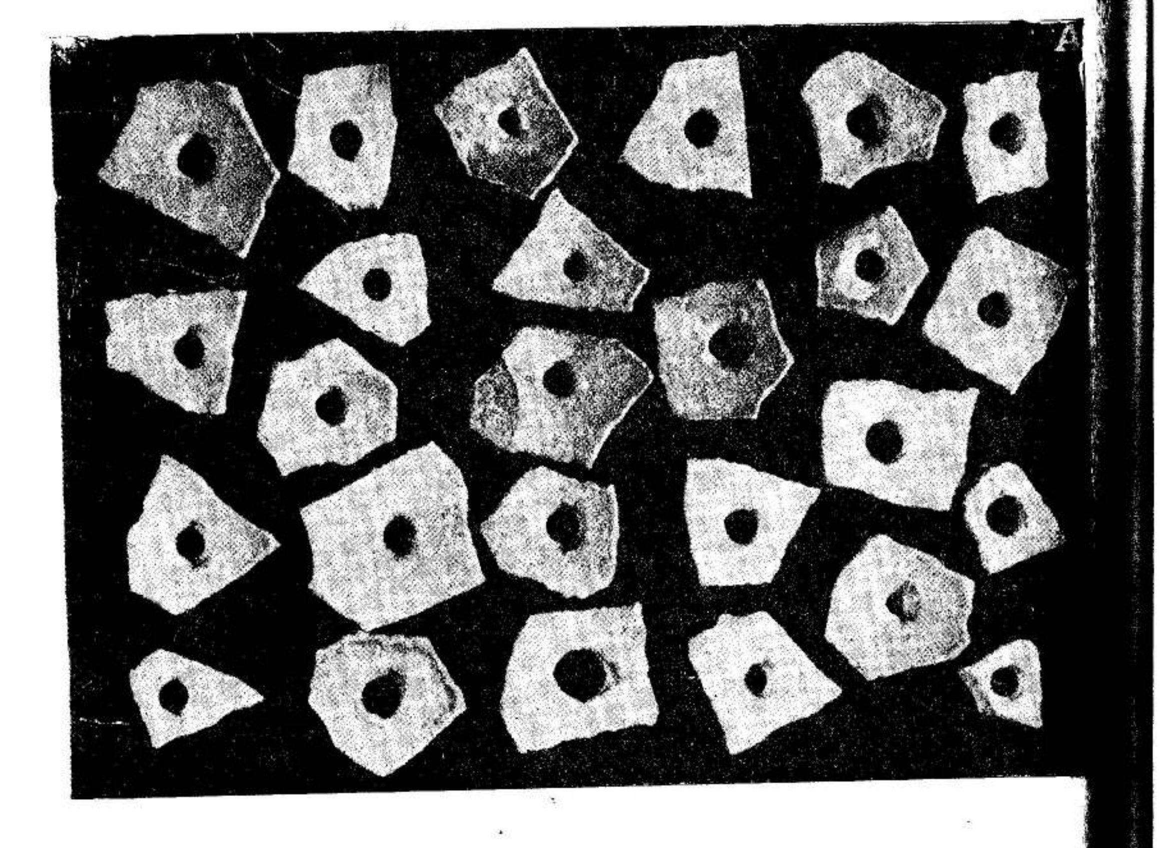
صورة 10 : نوط ايبيرو ــ مغربي.
ثقب الجزء السفلي من القوقعة من اجل خيط التعليق .

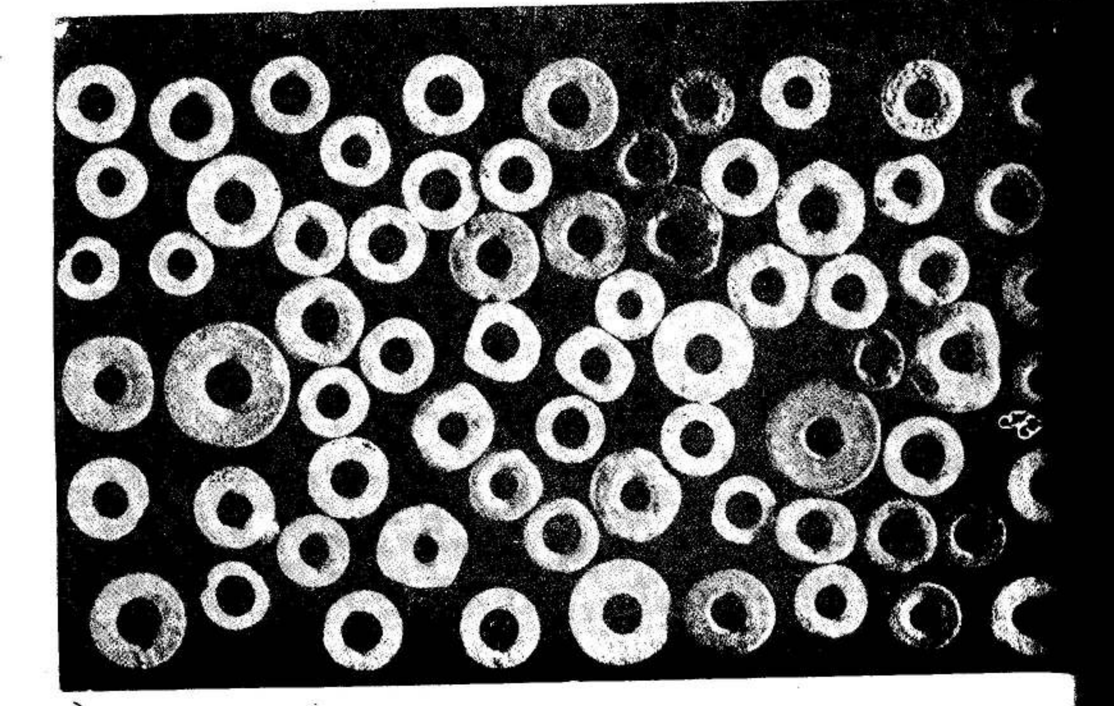
صورة 11 : تجربة فى نحتالصوان:
استعمال اداة قطع الشفرة ، ممسوكة باليد اليسرى وموضوعة على حافة النواة . وفى اليد اليمنى قادح ، وهو هنا قطعة من الخشب الاسطوانية الشكل .

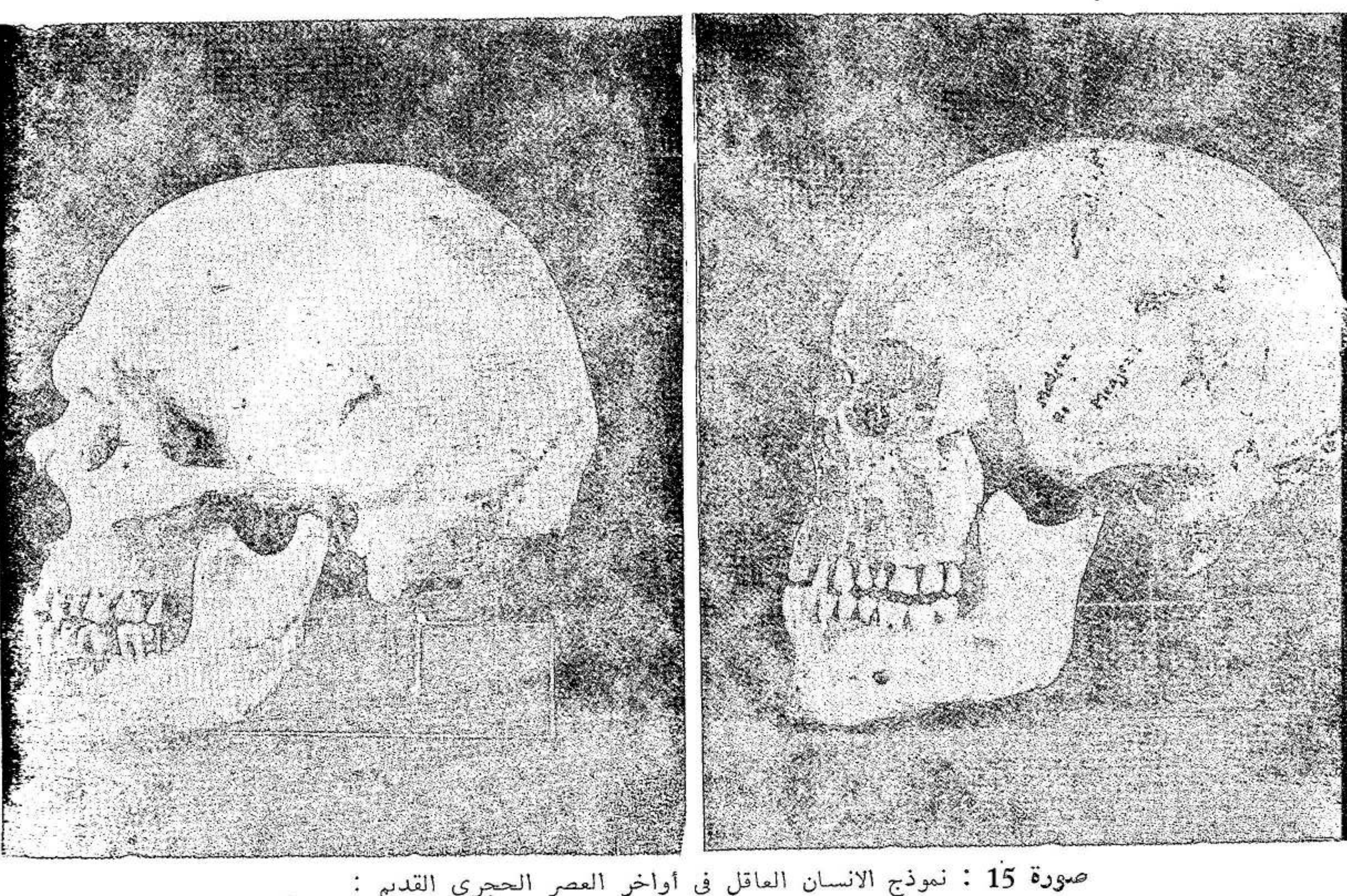




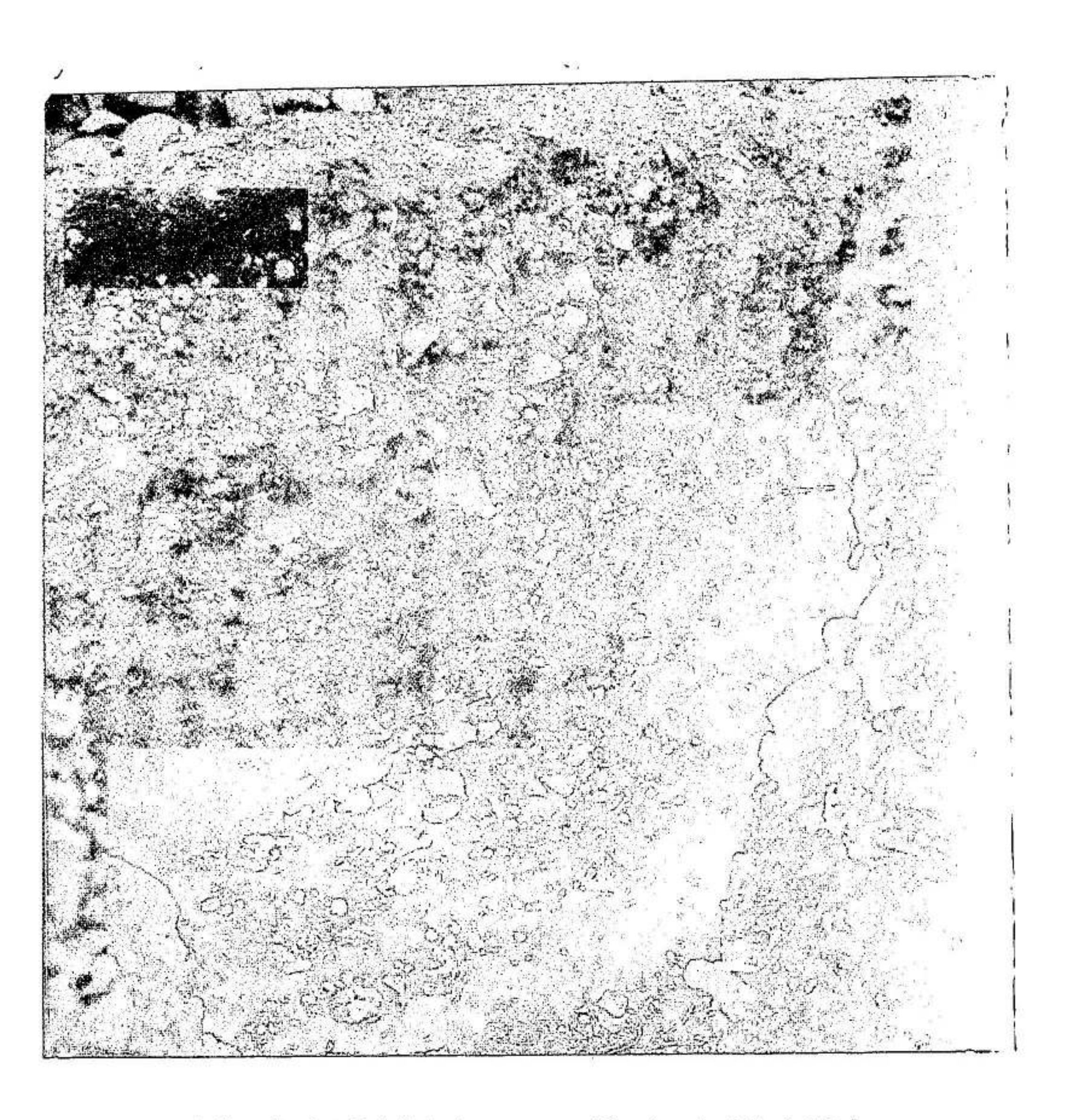
صورة 12 : خنجر من العظم المصقول (على اليسار) .



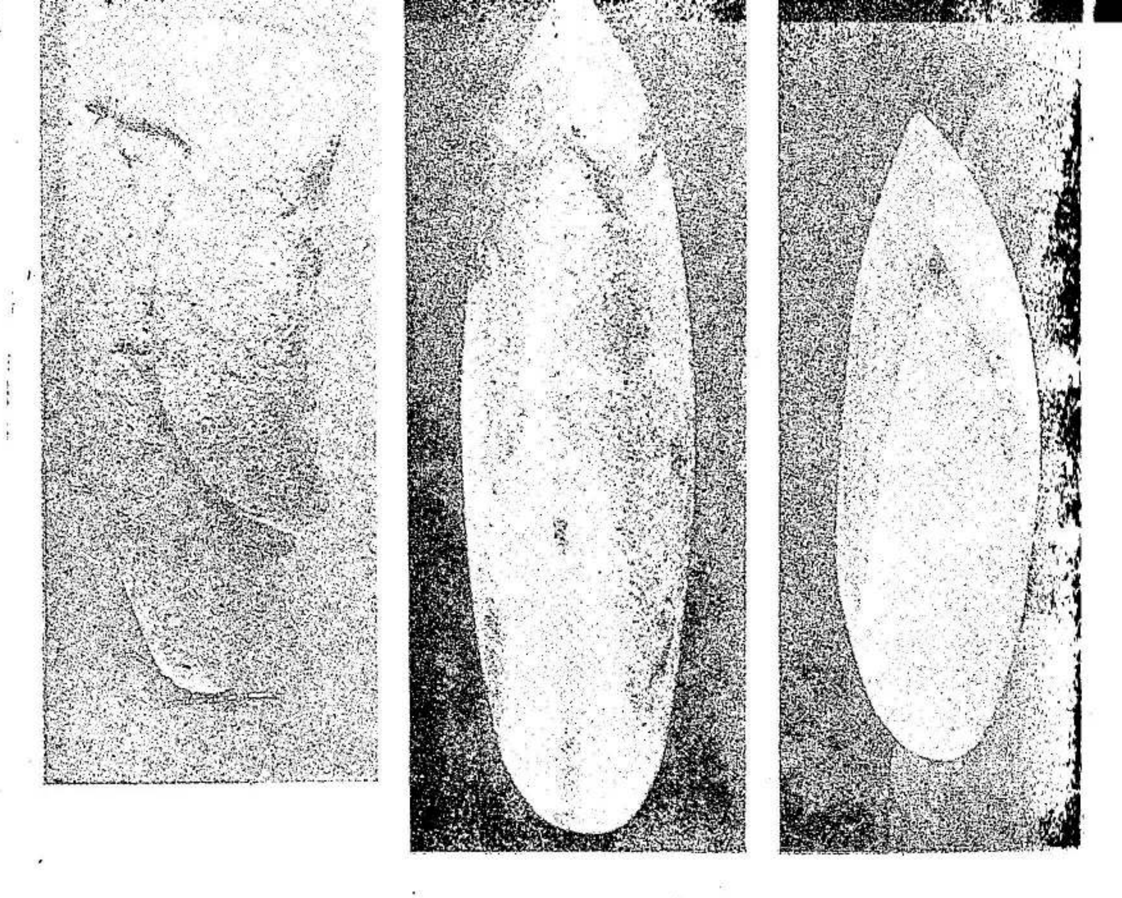


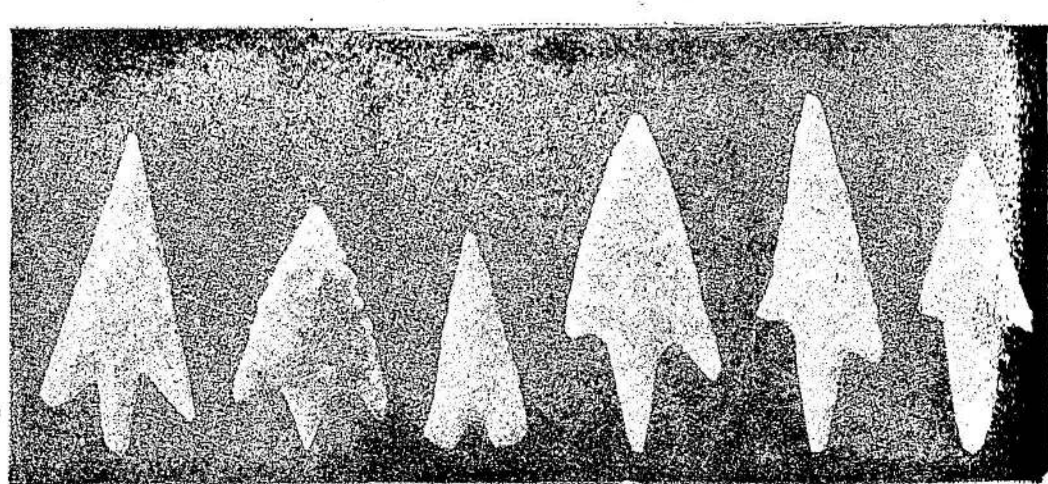


صورة 15 : نموذج الانسان العاقل فى أواخر العصر الحجري القديم : انسان مشتى العربي على اليسار ، وانسان ما قبل المتوسطي على اليمين .



صورة 16 : مقطع فى حلزونية عين بوشريط (العلمة) : يظهر الحلزون واضحا جدا وهو مختلط بالحجارة .

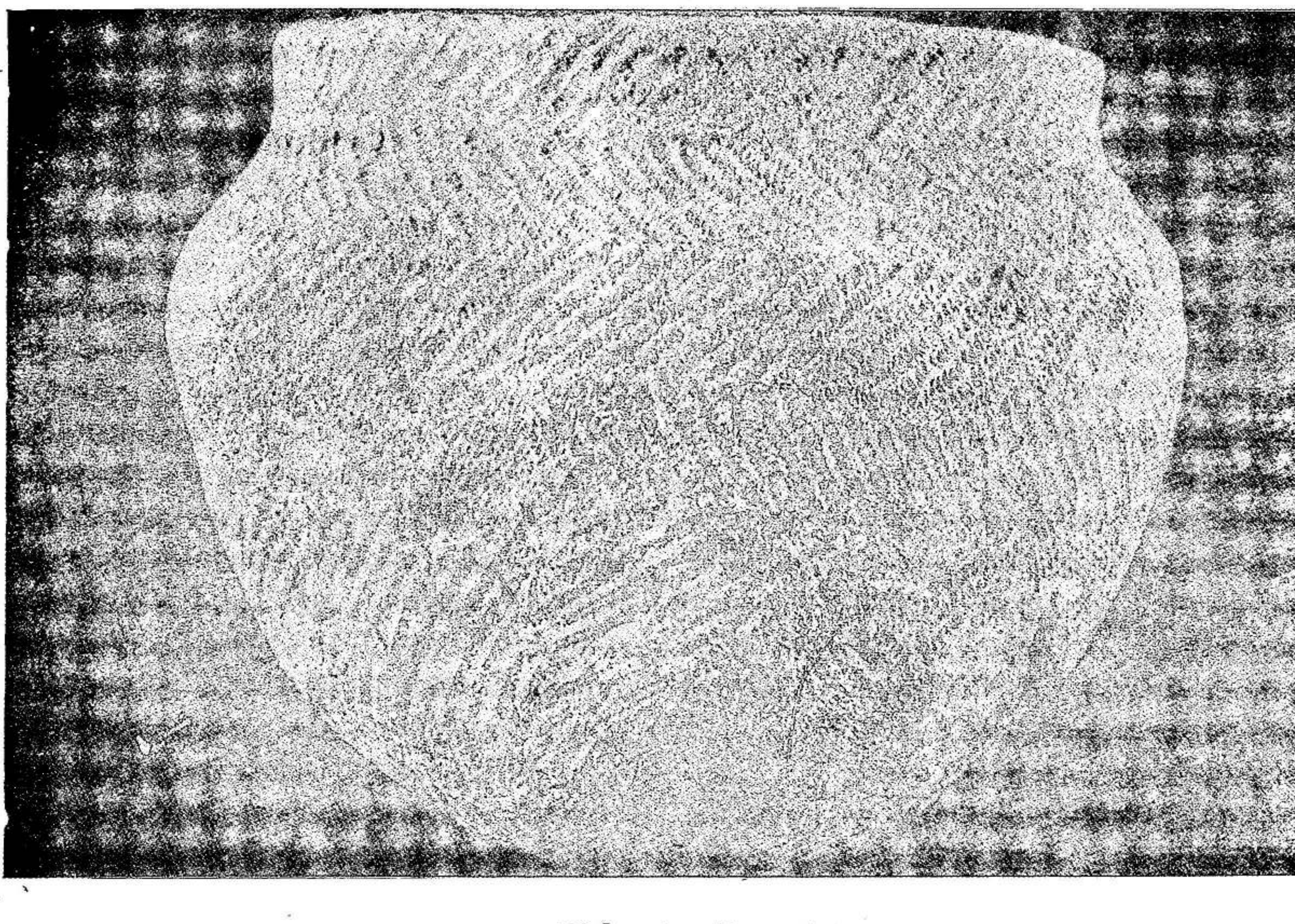




صورة 17 : الفن القفصي : وجه منحوت من موقع المقطع (تونس) .
صورة 18 : فؤوس نيوليتية مصقولة .
صورة 19 : رؤوس سهام نيوليتية .



صورة 20 : شق رحى حجرية من العصر النيوليتي .



صورة 21 : فخار نيوليتي ، قارن بالصورة 30 .

لذلك بالطول وقلة العرض ، أما القاعدة فهـي دائرية أو بيضوية أو اهليجية .. تندرج الأدوات العظمية ، حسب أوجه نهاياتها ، ضمن ثلاث مجموعات كبيرة (صورة 8) :

— أدوات ثاقبة ذات نهاية حادة .

— أدوات مثلمة ذات نهاية ملساء أو دائرية .

— أدوات قاطعة ذات حد مائل .

لقد عرفت الحضارة الايبيرو — مغربية بالخصوص الأدوات الثاقبة المخارز ، والأدوات القاطعة كالقطاعات ذات الاشكال المختلفة .

البشر وأنماط معيشتهم :

ان بشر الحضارة الايبيرو — مغربية معروفون جيدا بفضل الهياكل العظمية الكثيرة التي تم العثور عليها فى مختلف المواقع ، وخاصة منها المقابر الثلاثة الكبرى بكل من أفالوبورمل (بجاية) وتافورالت (شرق المغرب الأقصى) وكلومناطة (تيارت) .

دفن فى هذه المقابر عدة مآت من الأشخـاص ، من الجنسين ومن مختلف الأعمار . وقد سمحت أقدم الحفريات (1930) بأفالوبورمل بالتعرف على نموذج الأيبيرو — مغربي . ثم مكنت دراسات أحدث من السالفة ، أجريت فى تافورالت وكلومناطة ، من الاطلاع على فروق دقيقة ضمن هذا النموذج ، وذلك بما يوجد من تنوعات فيزيائية هامة أحيانا بين موقع وآخر . لكن يظهر أن هؤلاء الأفراد ينتسبون الى نموذج واحد ونوع واحد من الانسان العاقل ، وهو النموذج المعروف بانسان مشتى العربي (اسم موقع موجود بين سطيف وقسنطينة) أو انسان مشتى أفالو (صورة 9) .

يتصف رأس انسان مشتى العربي بالخشونة ، للجمجمة شكل مخمس أو بيضوي ، وهي ذات طول أكثر من العرض فى نموذج أفالوا وتافورالت، بينما عرضها أكثر من طولها فى نموذج كلومناطة . أما الجبهة فقليلة البروز ومتراجعة نسبيا ، وأقواس الحواجب متصلة ، وتكون نقطة اتصالها تتوءا عظميا بارزا جدا عند الذكور .

يمتاز الوجه بالقصر والعرض . أما محاجر العيون فهي مستطيلـة ومتباعدة . الذقن بارز جدا ، أما زاويتا الفك الأسفل الداخلية والخارجية فكثيرا ما تكونان منحرفتين . والعرف الصاعد للفك الأسفل عال وسميك.

توحي بقية الهيكل العظمي بأن انسان أفالووتافورالت كان قويا : أطرافه طويلة وكتفاه عريضتان وحوضه ضيق . له قامة طويلة بلغت 1،75 م بينما كان انسان كلومناطة أقل طول حيث تراوحت قامته ما بين 1ر60 م و 1ر70 م .

لايزال أصل الانسان الايبيري — مغربي موضوع نقاش . وكان يعتقد لمدة طويلة أن أصله من الشرق ، وأنه وصل الى المغرب عن طريق الجنوب التونسي . غير أن اكتشاف أوائل انسان نياندرطال بجبـل ارحود سمح بالتفكير بحذر فى الأصل المحلي لانسان مشتى العربي . فقد عاش هذا حتى العصر الحجري الحديث ، حيث بقيت آثاره خاصة فى اقليم وهران . ثم اختفى فيما يبدو أواخر ما قبل التاريخ . ويعتقد حاليا أن قسما من أحفاد انسان مشتى العربي يسكن جزر الكناري .

ان المعلومات المستخرجة من دراسة المواقع تسمح لنا بالتعرف على حياة هؤلاء البشر من أوائل الانسان العاقل . لقد كانوا يقيمون خاصة فى المناطق الساحلية وفى التل أحيانا . ورغم أن المناخ آنذاك لم يكن يختلف كثيرا عن المناخ الحالي ، الا أنه ربما كان أكثر برودة ورطوبة

مما هو عليه الآن . كانت سكنى الكهوف والمخابيء أكثر شيوعا وغالبا ما كانت الكهوف متجهة نحو البحر الذي كان مستواه أكثر انخفاضا مما هو عليه الآن وكان الناس يعيشون من القنص . وليس مستحيلا أن الأعداد الهائلة من النصال التي صنعوها كانت تستخدم كرؤوس سهام . لذا اقتنصوا في المرتفعات الخلفية الزاخرة بحيوانات القنص ، الضبي والغزال والبقر البري والخنزير الوحشي وكثيرا من صغـــار القواضم والطيور الخ ..

وكثيرا ماكانوا يكملون وجباتهم من منتوجات الصيد البحري أو بالحلزون البري . ولكن فواقع المحارات كانت تجمع لغرض آخر ، هو صناعة قطع الزينة .

ليس لدينا ما يؤكد تناول هؤلاء البشر لغـــذاء نباتي ، ولكن هذا شيء محتمل جدا اذ يمكن أنهم استغلوا الموارد الطبيعية ، واستهلكوا العنبيات البرية ، وكذلك الجذور ، ونباتات أخرى مغذية .

لم يكن الغذاء الطبيعي وحياة العراء كافيين لحماية أولئك البشر من التعرض للمرض . ان دراسة تشوهات الهياكل العظمية سمحت بتحديد بعض الأمراض . وكان مرض المفاصل والتسوس ودمالات الاســـنان أمراضا شائعة ، غير أن مرض الكساح وسل العظام فلم يكونا معروفين ، ويمكن تفسير ندرة انكسارات العظام وكثرة الشقات في الفقرات بأن ذلك علامة على حياة الهدوء والاستقرار .

لا نعرف سوى القليل عن معتقدات الأيبيري — مغاربة ، مع أن الملاحظات حولها كثيرة من ذلك أنهم كانوا يمارسون عند البلوغ عادة قلع بعض الأسنان . وكان القلع عامة يتناول قواطع الفك العلوي دائما . ولعلهم كانوا يمارسون هذه العادة كطقوس للانتقال من مرحلة المراهقة الى سن الرجولة .

كما كانوا يمارسون ، مثل القفصيين بعدهم ، عادة صبغ الجســم ، حيث عثر في معظم مواقعهم على بقايا كثيرة من مواد التلوين (مغرة حمراء وصفراء ومنغنيز) ، فهل كان لهذه المواد الملونة فضيلة خاصة ؟ لقد وضع عند رأس أحد الهياكل العظمية بأفالوبورمل كتلة كبية من معدن الحديد (حديد أوليجيست) .

صبغ هؤلاء البشر أجسامهم ، ومن المؤكد جدا أنهم تزينوا بالعقود والنوط والحروز فاستعملوا لذلك قواقع وثقبوها كي يسهل امرار خيط لتعليقها (صورة 10 أ) .

تدل وضعية الجثث المكتشفة خلال الحفريات ، بوضوح على وجود طقوس جنائزية ، من ذلك أن الموتى كانوا يقبرون ولا يتركون مهملين . وكان للجثة وضعان متميزان ، حيث تطوى على نفسها وتسنـــد عـلى الجنب أو الظهر ، وأحيانا يعثر على عظام مسجاة بدون انتظام ، وليس بينها اتصال ، والظاهر أن هذه الحالة كانت نتيجة لطقوس اعادة الدفن التي كانت تجري بعد أن تتخلص الجثة من اللحم .

وأخيرا فان مواقع بعض الجثث قد حددت في كلومناطة بكومات من الحجارة وقطع حجرية قائمة ، وهو ما يشكل آثارا جنائزية حقيقية .

الحضارة القفصية :

ظهرت هذه الحضارة بعد الأيبيري — مغربية . ومجـــال انتشارها الجغرافي مختلف . لقد عرفت في بداية الأمـــر باقليم قفصة ومن هنا سميت بالقفصية (وهو اسم المدينة القديم) . وسمح تطور الأبحاث الأثرية فيما بعد بتحديد أماكن قفصية خارج خليتها الأولى : في جهات سطيف وقسنطينة وكذلك بعيدا في اتجاه الغرب حتى اقليم تيارت . أما

فى المغرب الأقصى فلم يعرف أي أثر للحضارة القفصية هناك حتى الآن ، وزيادة على ذلك فحيثما وجدت القفصية لا تصل الى السواحل أبدا .

تم تعريف هذه الحضارة فى موقع المقطع (قرب قفصة) . ومن العدد الكبير من مواقعها الهامة فى الجزائر نذكر فى اقليم تبسة : مواقع ارفانة ، وقلعة المحاد وعين الذكارة ، ثم موقعي المجزوعين بوشريط فى اقليم سطيف ، وموقعي كلومناطة وعين كيدا قرب تيارت .

سادت لمدة طويلة فرضية تقول بأن تطور الحضارة القفصية مر بمرحلتين : مرحلة قديمة ، كانت القفصية فيها محدودة فى اقليم قفصة وتبسة ، وكانت أدواتها خشنة ، فسميت لهذا السبب بالحضارة القفصية النموذجية . ثم عرفت توسعا حقيقيا على يد رجال انطلقوا من الموطن الأول ، وصنعوا أدوات صغيرة أكثر دقة وخفة ، وهذه المرحلة الثانية هي التي سميت بالقفصي الأعلى . ولتمتين هذه الفرضية كان يجب أن يكون القفصي النموذجي أقدم ، بطبيعة الحال ، من القفصي الأعلى ، ولكن هناك أعمالا أثرية حديثة بينت معاصرة الثاني للأول أو تأخره عنه أحيانا ، ومن ثم فانه اذا حافظنا على هذا التمييز بين القفصيتين ، فلم يبق لهما نفس المدلول . انه ليصعب فى الوقت الحاضر وضع القفصي النموذجي أصلا للقفصي الأعلى ، اذ أنه ربما كانت العلاقة بينهما شبه لا غير ؟ .

لقد ظهرت الحضارة القفصية بعد الحضارة الأيبيري — مغربية بزمن طويل ، ذلك أن أبعد تاريخ لها حدد فى موقع عين ناقة (مسعد) بـ 7350 سنة قبل ميلاد المسيح . بينما يدور آخر التواريخ القفصية أواخر الألف الخامسة (حوالي 4390 ق . م) بموقع كلومناطة القفصي .

تدل هذه التواريخ اذن ، وبصورة مؤقتة ، على تواصل الحضارة القفصية لمدة ألفي سنة .

الأدوات :

على عكس أناس الأيبيري — مغاربة فان القفصيين لم يصنعوا نصالا كثيرة ، واستعملوا الشفرات والشظايا بكثرة . ولقد صنعوا الشفرات بأسلوب خاص ، حيث كانوا يضعون بين النواة والقادح ازميلا ، ربما كان من العظم ، مما يسمح بتحديد مواقع الطرقات بدقة أكبر (صورة 11) . كما أنهم كانوا ربما ينتزعون الشفرات بطريقة الضغط ، وذلك باستعمال عكاز فى شكل جهزت نهايته السفلى برأس حاد ، وكان يوضع العكاز على سطح النواة المعد للطرق . ويسمح الضغط على عارضته بالصدر بنزع الشفرات .

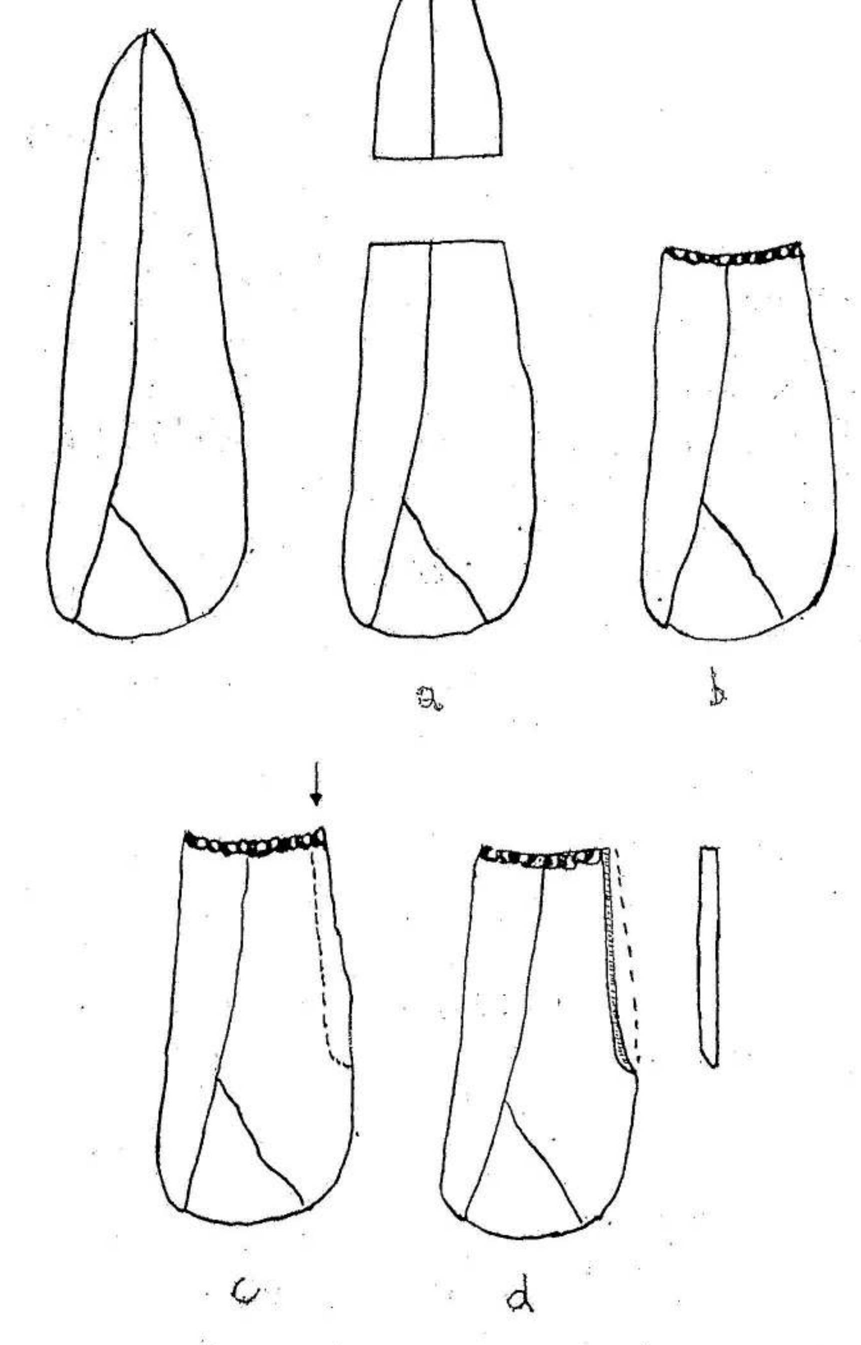
وهكذا تأخذ نوى الشفرات شكلا هرميا منتظما ، بينما تأخذ التي تنزع منها الشظايا أشكالا غير منتظمة .

ثم تمر هذه الشظايا والشفرات والنصال بعد ذلك بعمليات نحت ثانوية كي تصنع منها أدوات وأسلحة . ونذكر من مجموعة الأدوات القفصية المختلفة ما هو شائع أكثر :

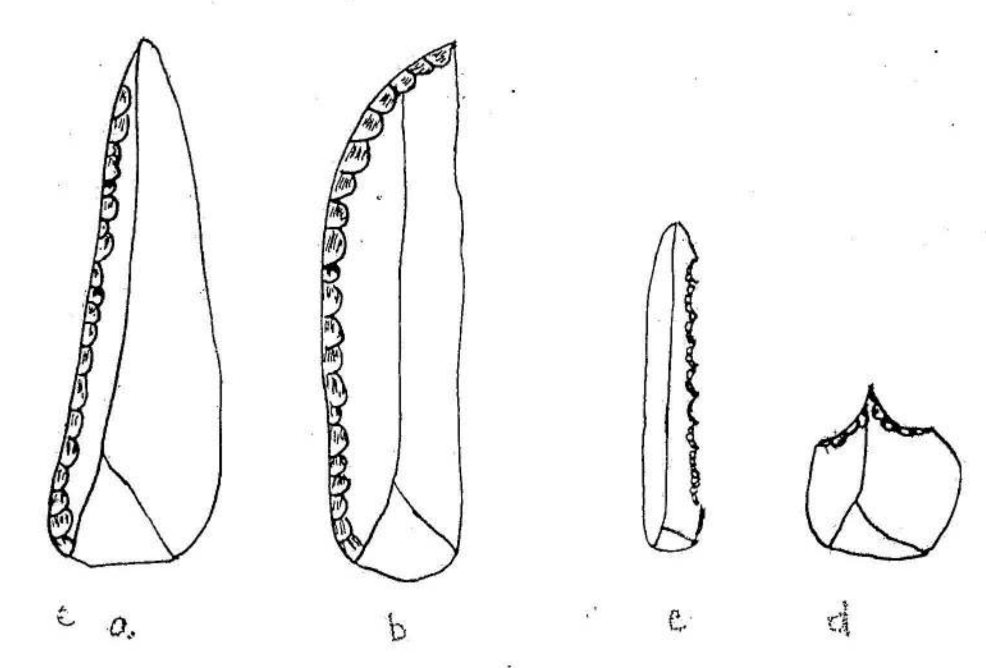
— المحكات (أنظر أعلاه ص 34) .

— المخارز المصنوعة من شظية أو شفرة أو نصلة ، وهي تنتهي بتحزيزتين عميقتين تكونان رأسا حادا أحيانا (شكل 14) .

— الأزاميل المصنوعة عموما من الشفرات (شكل 13) ، وفى الغالب كانت الشفرة تبتر عرضيا ، ثم يعرض سطح الانكسار الى طرق موزع على رؤوس الزاويا فتتطاير ابر رفيقه من الصوان تدعى « سواقط الازميل » . وقد تعرض هذه الدقائق للمسات أخرى كي تصبح نصالا . أما الأزميل فيشكل حافة ذات زاوية حادة وسنا قوية قاطعة .



شكل 13 : صناعة ازميل قفصي : رسم نظري .
أ) بتر الشفرة .
ب) تشذيب سطح الكسر الذي يستعمل سطحا للطرق .
ج) « ضربة ازميل » .
د) الازميل و « السواقط » التي فصلت عنه .



شكل 14 : أدوات قفصية :
أ) شفرة ذات حافة مشذوبة مستقيمة .
ب) شفرة ذات حافة مشذوبة مقوسة .
ج) منشـــــار .
د) مخرز فى أعلى الشظية .

ـ تعرضت الشفرات الكبرى أحيانا للمسات مثل النصال الأيبيري ـ مغربية ، ولنحت ايضافي استهدف ازالة احدى حوافها ، فأصبحت بعد ذلك فى شكل سكاكين حقيقية (شكل 14) .

ـ حزت أو سننت بعض الشفرات والنصال، وكذلك بعض الشظايا ، فأعطاها انتظام تسننها أحيانا هيئة مناشير حقيقية صغيرة (شكل 14) .

ـ وأخيرا ، استخدم الصناع القفصيون تقنية الأزاميل الدقيقة فى كسر النصال (أنظر أعلاه ص 85) من أجل صناعة الأدوات الحجرية الدقيقة ، وهي قطع صغيرة منحوتة ، ذات أشكال هندسية ، يتطلب صنعها عموما كسرا مضاعفا ، يليه نحت ثانوي يتناول خط الكسر ، فينتج عنه ما يلي :

ـ قطع دوائر

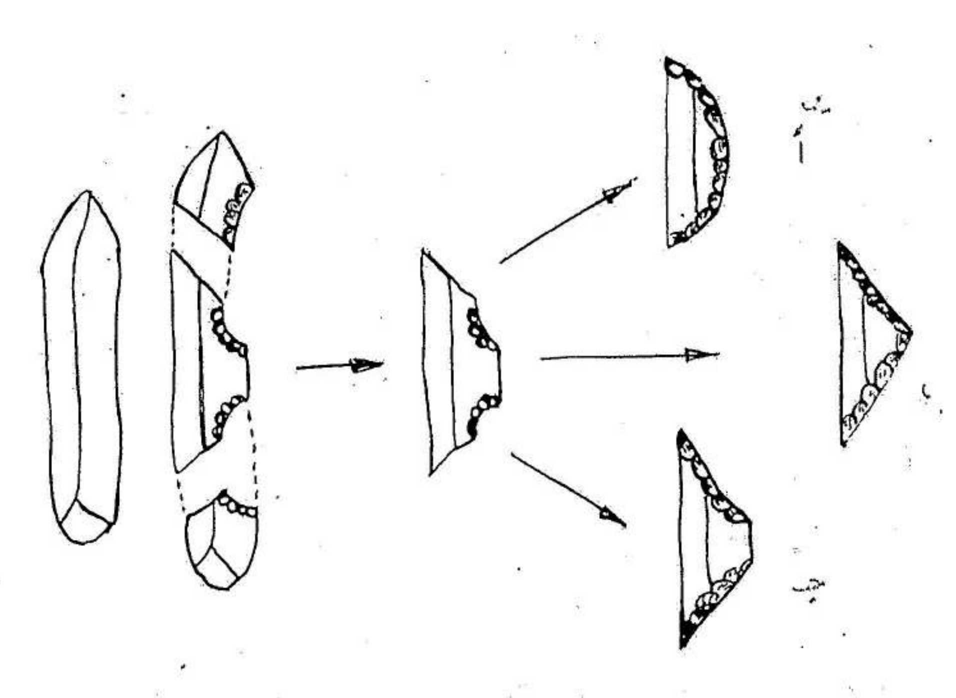
ـ أشباه منحرفة

ـ مثلثات (شكل 15) .

يضاف الى هذه الحجارة المنحوتة بطبيعة الحال ساحقات مخصصة لطحن مداد التلوين ، ومثاقب وسنديانات .

ادوات من العظم المصقول :

تعتبر أدوات العظم المصقول أكثر عدد وتنوع من مثيلاتها فى الحضارة الأيبيري ـ مغربية اذ توجد من بينها المخـارز والقطاعات ، وكذلك أدوات ذات نهاية دائرية ، وابر دقيقة وسكاكين حقيقية ، و « خناجر » . غير أن هذه الأخيرة قطع نادرة الوجود (صورة 12) .



شكل 15 : صناعة قطع حجرية دقيقة ذات اشكال هندسيـة ، رسم نظري ، بتر النصلة من نهايتها بتقنية الازميل الدقيق . يسمح النحت الاضافي ، حسب الحالات ، بالحصول على :

أ) قطعة دائرة .
ب) مثلث .
ج) شبه منحرف .

اكتشفت أدوات عظمية فى بعض المواقع (مشتى العربي كاومناطة) سميت خطأ « مناجل » لقد صنعت هذه الأدوات من ضلع حيوان ، حفر فيه ثلم طولي غرست فيه حجيرات دقيقة (صورة 13) .

بيـض النعـام :

لقد استعمل الأيبيرو ــ مغاربة بيض النعام ، حيث توجد قطع منه فى بعض المواقع . واستخدم القفصيون بيض النعام بطريقة أكثر انتظام . فبعد استحصال البيض للاستهلاك تستخدم قشوره لأغراض عديدة . تثقب احدى نهايتي البيضة فيحصل على قارورة حقيقية (صورة 22) ، وتستخدم قشوره المهشمة فى صنع أكواب قطر الواحد منها يتراوح بين 4 و 5 سنتمترات ، وهي ذات حافـة منتظمة . ويصنع من القطع الصغيرة حلقات ، وذلك باحداث ثقب فى وسطها وتشذيب أطرافها كي تصبح قابلة للصف فى خيط ، وهو ما يعطيها صورة لآلىء عقد (صورة 14) .

وأخيرا فقد احتوى عدد من قطع القشور التي لا شكل لها عـلى زخارف هندسية منقوشة .

الانسان القفصي : الوسط الجغرافي ونمط المعيشة :

ان الهياكل العظمية المكتشفة فى المواقع القفصية لم تحظ بعد بالمواصفة الدقيقة . غير أننا نعرف القفصيين المنتسبين ، مثل انسان مشتى افالوا ، الى الانسان العاقل ، لكنهم من سلالة مغايرة لسلالة انسان المشتى . وبناء على البيئة العامة لهياكلهم العظمية فهـم يقتربون من المتوسطين الحاليين . ومن هنا أطلق عليهم اسم أوائل المتوسطين .

لقد أظهرت مقارنة النوعين : انسان المشتى وأوائل المتوسطيين بعض الاختلافات (صورة 15) ، فالانسان القفصي أقل خشونة وبدائية فى مجموعه من قريبه الأيبيري ــ مغربي ، ذلك أن النتوءات العظمية التي تتعلق بها العضلات (فى الرقبة وعلى الفكين) أقل قوة ، ومحيـط الجمجمة فيه اهليجي الشكل ، بينما الوجه أكثر استقامة واستدارة ، وجبهته أكثر ارتفاع ، والعظم الفاصل بين محجري العين فيه قليل البروز ، والفكان أقل قوة .

عاش القفصيون فى البلاد التي تكون الآن السهول السهبية فى بلاد المغرب . وتوجد بعض آثارهم فى التل ، بينما تنعدم فى الساحل تماما . لم يطرأ تغير محسوس على هذا الأقليم الطبيعي الذي وقع عليه اختيارهم منذ ذلك العهد ، ما عدا أنه ربما كان أكثر اخضرار وكـان أسلـوب السكن الشائع هو سكنى العراء . لكن القفصيين لم يكونوا يجهلون سكنى المخابيء الصخرية (مثل مخبا ريلاعي بكلومناطة) . ويحتمل أن مضاربهم فى الهواء الطلق كان لها ما يحميها من تقلبات الطقس .

وغالبا ما كانت مخيماتهم بالقرب من الوديان أو السبخات ، وهي معروفة حاليا بما تجمع فى مواقعها من فضلات كونت تـلالا ، تدعى حلزونيات أو « رماديات » (الصورة 16) . انها أكوام ذات أبعاد مختلفة ، يأخذ محيطها شكلا اهليجيا غالبا ، وهي مكونة من رمـاد المواقد والفحم والصخور وبقايا عظام الحيوانات ، ومن كميات كبيرة من الحلزون ، وأدوات حجرية أو عظمية ، وقطع الزينة . وقد مورس أحيانا دفن جثة أو أكثر فى الحلزونية أو تحتها ، كما هو الشأن فى موقع عين الذكارة مثلا .

كان القفصيون يستهلكون لحوم الحيوانات المقتنصة ، وهو ما تشهد به العظام المتبقية فى المواقد ، لكنهم كانوا أكلة حلزون ، بدليل الكميات

الهائلة من قواقعه التي تكون أهم شيء فى الحلزونية . وكانوا يمارسون مثل الايبيري ــ مغاربة جمع غلال النباتات كالجذور أو العنبيات البرية الصالحة للأكل .

وهكذا كان لأناس العصر الحجري المتأخر ، من قفصيين وايبيري ــ مغاربة أنماط معاشية متشابهة ، رغم أنهم عاشوا فى مجالات جغرافية مختلفة ، وفى عصور غير متطابقة بصورة كاملة . لقد كانوا قناصين ، ويقتاتون أيضا من جمع ثمر البحر أو الحلزون البري ، ويكملون وجباتهم بأغذية من النباتات البرية .

تسمح الوثائق المتنوعة التي جمعت من الحلزونيات بتكوين فكرة عن بعض العادات القفصية .

كان القفصيون يدفنون موتاهم شأنهم فى ذلك شأن الايبيري ــ مغاربة ، اذ وجدت الهياكل العظمية المكتشفة فى الحلزونيات محتفظة بوحدتها التشريحية ، وقد طلي بعضها بالمغرة . كانت الجثة تطوى وتسند على الجنب بصفة عامة . ووجدت فى كثير من الأحيان عظام بشرية متفرقة ، تدل على أنه أعيد دفنها (أنظر أعلاه ص 51) .

الشيء الغريب حقا الذي ينفرد به القفصيون ، هو اعادة استخدامهم للعظام البشرية لقد كشفت الحفريات فى مواقع مختلفة على كثير من قطع العظام البشرية المنحوتة ، بعد موت الشخص ، ففي كلومناطة عشر على فك آسفل قطع عرفاه القائمان بالمنشار ، وفى مشتى العربي نشرت قطع من الجمجمة وصقلت وثقبت ، كما صقلت قصبة ساق بشرية كي تصبح خنجرا ، واكتشفت فى مجز عظمة القفا منشورة ومصقولة ، كما عثر على أسنان تحمل تحزيزات حول الجذور (موقع بورطال فاكر) .

أما العادات الخاصة بالاحياء فان ادراكها أكثر صعوبة ، ويحتمل جدا أن القفصيين كانوا يدهنون أجسامهم . وربما مارسوا الوشم أيضا . لكن هل أنهم أخذوا عن الايبيري ــ مغاربة عادة قلع الأسنان ؟ نجهل ذلك . ومع هذا فاقتلاع أسنان الفك الأسفل كان أمرا أكثر شيوعا لديهم ، وشمل القلع فى عدد من الحالات كلا من الفك الأسفل والفك الأعلى .

وسواء مارسوا دهن أجسامهم أو وشمها فانهم كانوا يتزينون بقطع تشترك فى ميزة ، وهي أنها مزودة كلها بما يسمح بتعليقها ، كالثقب أو الثلمة ، ومن أجل هذا أخذوا قواقع مختلفة جدا وثقبوها ، وكذلك الحجارة وقطع العظم . وصنعوا كذلك عقودا من قشور بيض النعام (أنظر أعلاه ص 65) .

بداية فن ما قبل التاريخ :

تبرز مساهمة الانسان القفصي فى تطور حضارات ما قبل التاريخ ضمن مجال خاص ، هو مجال الفن .

حقا ، انه لمن العسير جدا وضع حد مميز بين الأشياء ذات الوظيفة العملية ، وبين التي لها وظائف جمالية . ان بيفاصا آشولية دقيقة التوازن من الماء الأبيض لتشهد باحساس جمالي مثل الذي يوحي به نقش حجري قفصي . غير أن المتفق عليه هو أن أحدهما شيء ذو وظيفة عملية (سلاح أداة) بينما لا تدرك بوضوح وظيفة الآخر .

ويبدو ، مهما كان الأمر ، انه لم يوجد قبل القفصيين من أناس ما قبل التاريخ فى المغرب من شعر بالحاجة لرسم أشكال على الحجارة والعظم وبيض النعام ، ذات معاني تعذر علينا فهمها اليوم .

ان زخرفة الأدوات العظمية المصقولة وبيض النعام ، رغم تواضع مواضعها ، قد ترجمت بعد هذا الذوق « الجمالي » . فهناك بعض مخارز العظم المصقول تزينها حزات متوازية وخطوط عمودية أو مائلة . كما تحمل كثير من كسر بيض النعام زخارف هندسية منقوشة ، تبدو الزخارف عموما فى شكل خطوط بسيطة مستقيمة أو منحنية أو منكسرة، ولكنها تارة تكون أكثر تعقيدا ، خاصة اذا كانت فى صورة خطوط تظليل وأكاليل وزوايا ودوائر ، الخ ..

يجدر هنا أن نذكر النموذج الفريد المتمثل فى بيضة النعام المزخرفة التي عثر عليها فى موقع وادي منقوب (أولاد جلال) .

استخدم الفنان هنا مغرة حمراء فى طلي الوجه الداخلي للقطعة ، ثم رسم وجه زائر حيوان يحتمل انه من فصيلة البقر) ، ثم نزع اللون الذي كان خارج الهيئة بواسطة الحك . لكن لم يبق من هذا العمل المعتبر سوى قطع تظهر عليها القدم الأخيرة والمؤخرة وبطن الحيوان وذيله .

عثر فى المواقع القفصية أيضا على حجارة كلسية عموما تم صبغها بالمغرة مسبقا ، ثم نقشت تبعا لتقنية مماثلة للتي استخدمت فى نموذج بيضة وادي منقوب . ونجد أحيانا نقوشا بسيطة لم يسبق التمهيد لها بالألوان . ان مواضيع الزخرف متنوعة صعبة الفهم ، فهي أحيانا عبارة عن خطوط بسيطة متوازية تكون تربيعا أو زوايا متوازية أو ثلاثي .

بينما تبلغ الزخرفة درجة كبيرة من التعقيد والتركيب فى بعض الحالات ، مما يدعو الى أعمال الخيال لاكتشاف وجه طير أو رأس أروية أو عنزة .

انكشفت أعمال النحت الحجري لأول مرة فى موقع المقطع (قفصة) . وفسر بعضها على أنه تمثيلات جنسية ، أما البعض الآخر فهو ربما يمثل

رؤوس حيوانات (الحصان) ، أو أقنعة تمثل وجها بشريا . وهناك نحت يستحق منزلة مرموقة بين الأعمال الكبرى الناجحة فى فن ما قبل التاريخ، انه فيما يبدو رأس انسان ، قص شعره على الجبهة وأزدل الباقي الى الخلف أما الوجه فغير منحوت ، ولكنه يحمل تحزيزات . وزين أعلى الرأس بعصابات من المغرة الحمراء (صورة 17) .

لقد استخدم القفصيون كذلك الجوانب الصخرية وصفائح الحجارة والجلاميد الكبيرة كحوامل لأعمالهم الفنية ، مثل ما هو الحال فى موقع المقطع (قفصة) الذي يتوفر على صخور منقوشة بأسلوب تخطيطي ، فسرت أشكالها كرموز لأعضاء جنسية أنثوية .

ان الأعمال الفنية الأصيلة من رسم ونحت ونقش ، على الحجارة أو بيض النعام ، مدينة كلها للانسانية القفصية . هذه الأعمال التي بلغ بها النيوليتيون فيما بعد ، درجة كبيرة من الاتقان ، سواء فى المغرب أو الصحراء .

حضارات العصر الحجري المتأخر الأخرى

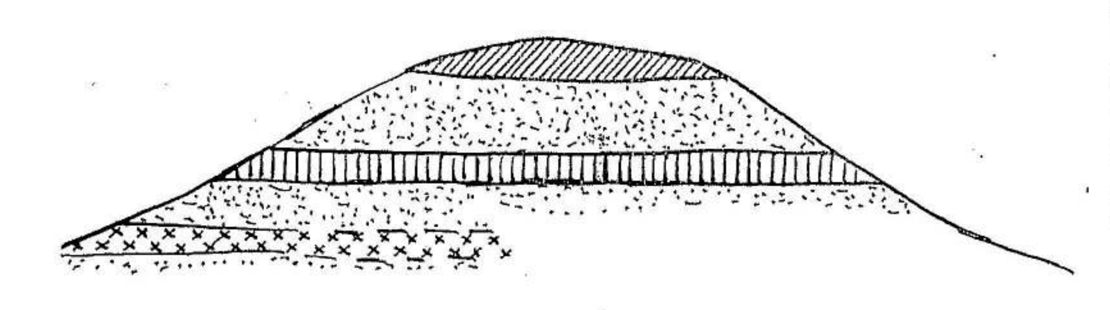
انها حضارات لاتزال معرفتنا بها محدودة ، لكونها حديثة الاكتشاف . ثم انها لا تحمل اسما معينا . وتمنعنا نتائج تحليل أدواتها من الحاقها بالقفصية أو الايبيري — مغربية . وهي لا تخضع دائما للمقارنة فيما بينها . فلا يسعنا اذن سوى القول بأنها أقدم من الحجري الحديث .

منذ زمن طويل عثر فى تونس على مصنوعات حجرية تكون النصال فيها نسبة عالية ، وهي ذات خصائص متميزة عن المصنوعات الايبيري ـ مغربية ، وتتركز فى جنوبي تونس (فى اقليم قابس والشطوط) .

وفى الجزائر يمكن تمييز مجموعتين كبيرتين منها . تتكون الأولى من أدوات حجرية دقيقة جدا ، أي أنها تنطوي على قسم من النصال الدقيقة ذات الحافة المشذبة (طولها دون 25 مم دائما) . وتوجد بعض نماذج هذه المجموعة فى كلومناطة (تيارت) وفى موقع كدية كيفان لحدة (الأوراس) ، وهي هنا تتوضع تحت الطبقة القفصية العليا . وقد تم تأريخها على التوالي بـ 2600 و 6500 ق . م . (أنظر مقطع الصفحة فى كلومناطة) .

أما المجموعة الثانية فهي متفرقة أكثر ، وتشمل أدوات جمعت عند السفوح الجنوبية للأطلس الصحـراوي (الحويتة قرب الأغواط) . وكذلك فى الصحراء الشمالية (حاسي مويلح قرب ورغلة) . تعد مصنوعات الحويتة أقدم من القفصية ، وتختلف عنهـا بلاريب . أما بالنسبة لحاسي مويلح فان الموقع قد تواصل عمرانه من طرف أنـاس الحجري المتأخر (طبقتان) ، ثم عمره النوليتيون أيضا ، لكن كل عمران كان يعقبه اخلاء مؤقت للموقع (شكل 16) .

من السابق لأوانه فى الوقت الحاضر تحديد أهمية ودور هـاته الحضارات ، لكنها ساهمت ، بلاريب ، فى اثراء وتنويع حضارات العصر الحجري المتأخر التي ظلت معرفتنا بها الـى وقت قريب مقتصرة عـلى الحضارتين : الايبيري ــ مغربية ، والقفصية .



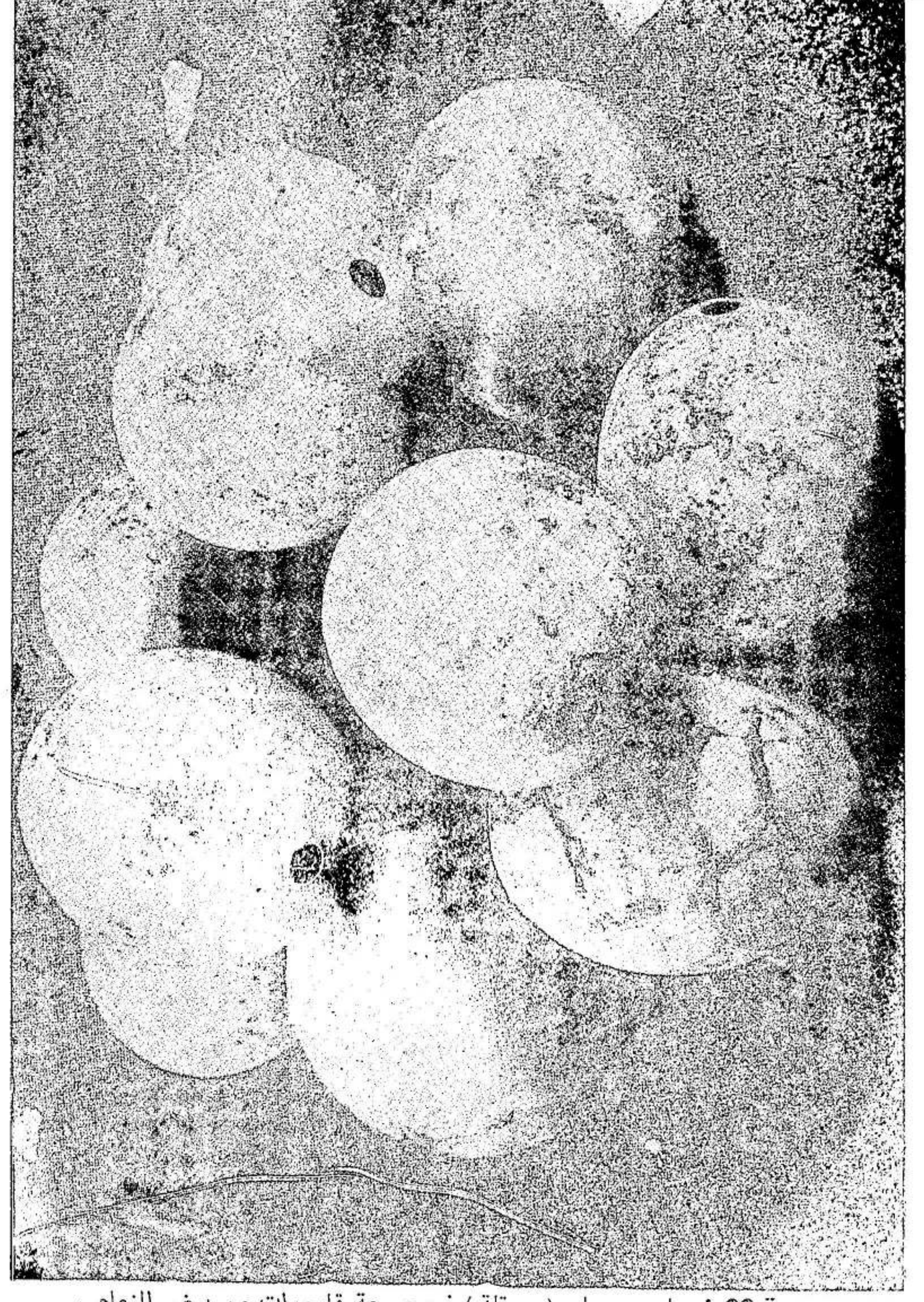
نيوليتي 3330 ق.م.

حجري متأخر I 6650 ق.م.

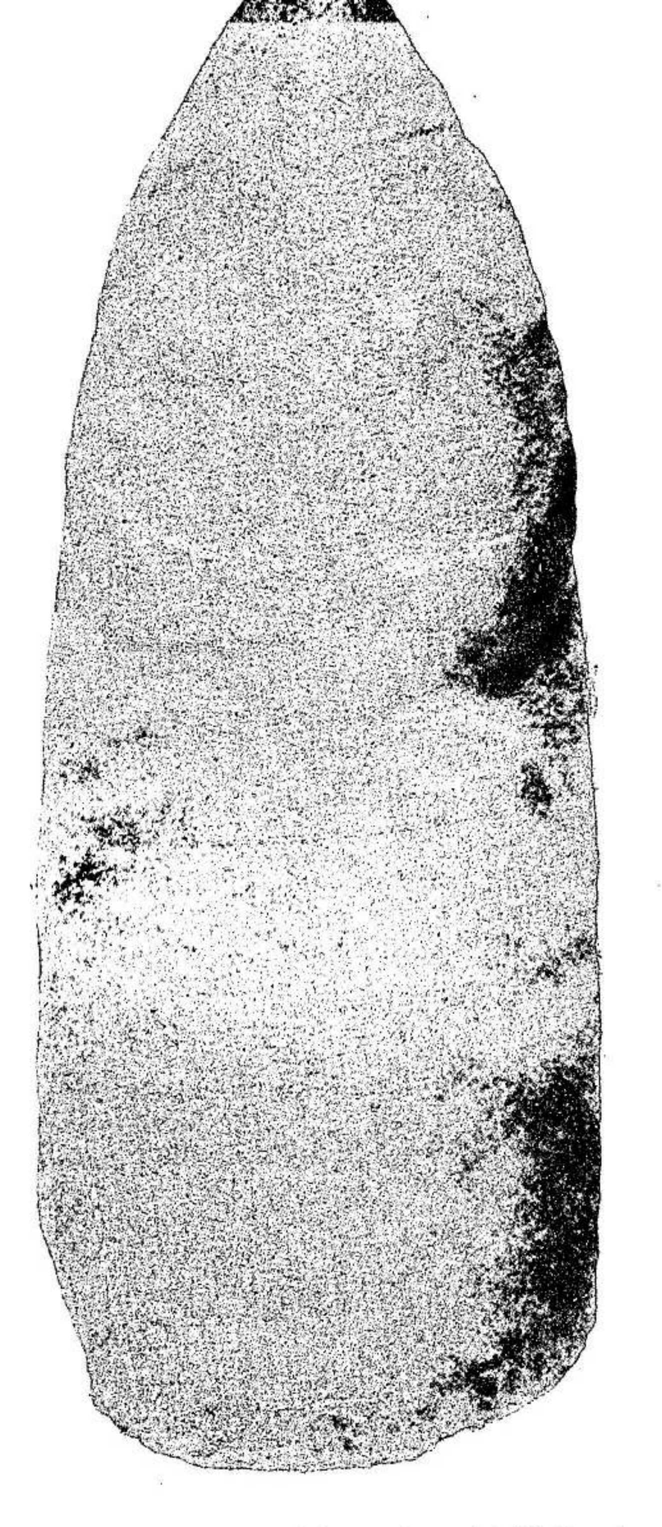
حجري متأخر II 5700 ق.م.

رمل خال من الوثائق

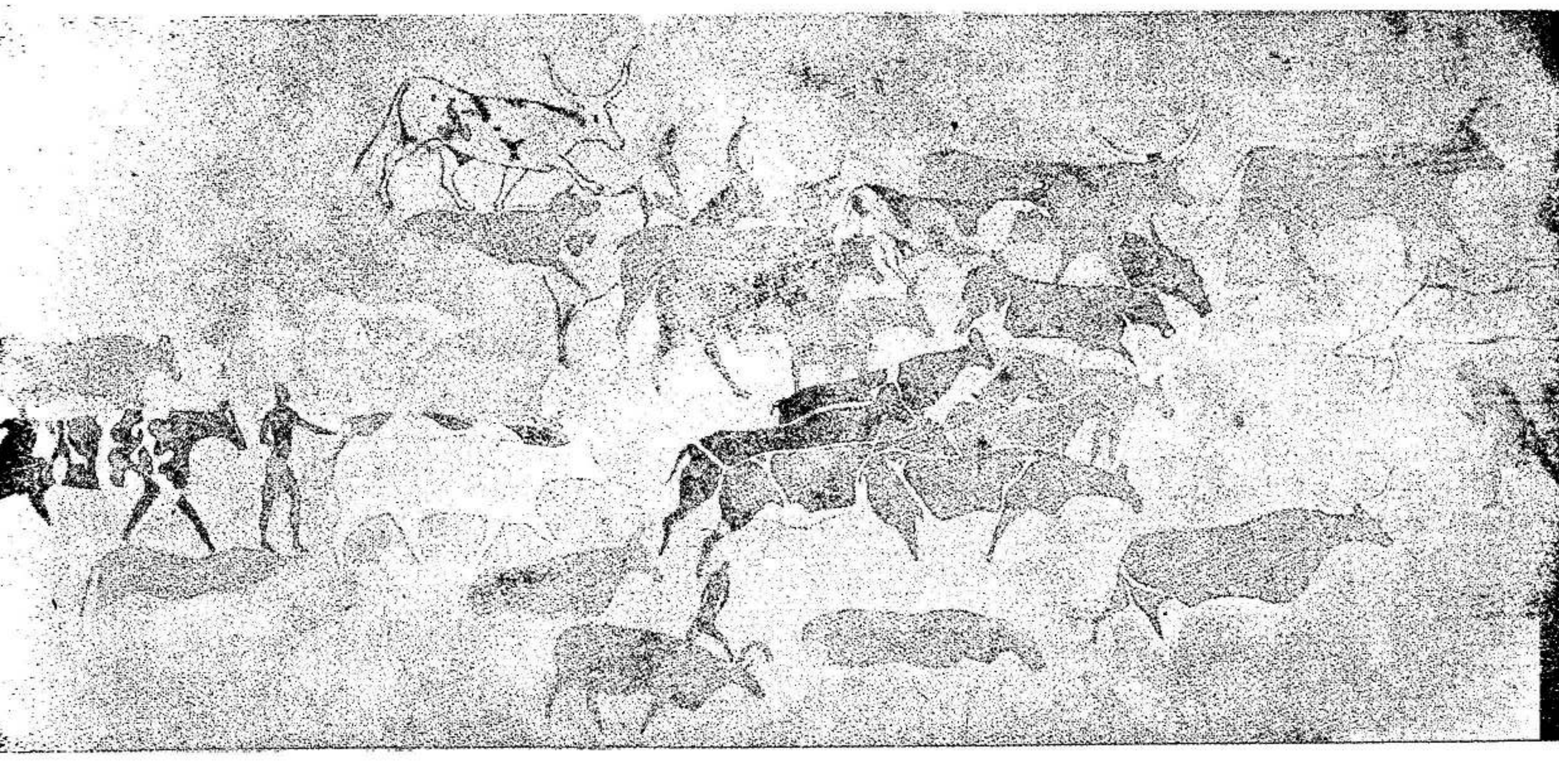
شكل 16 : موقع حاسي مويلح (ورقلة) : مقطع تحطيطي يبين مستويات العمران الثلاثة . طبقتان متراكمتان من الحجـر المتأخر . وطبقة نيوليتية .



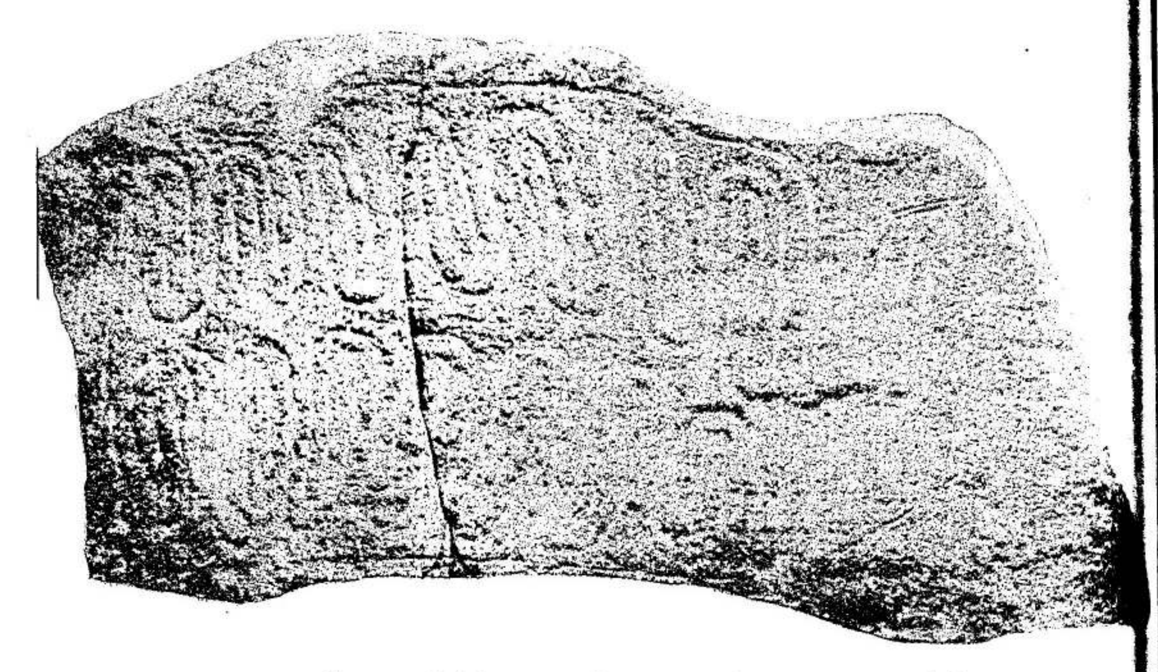
صورة 22 : حاسي مويلح (ورقلة) : مجموعة قارورات من بيض النعام .



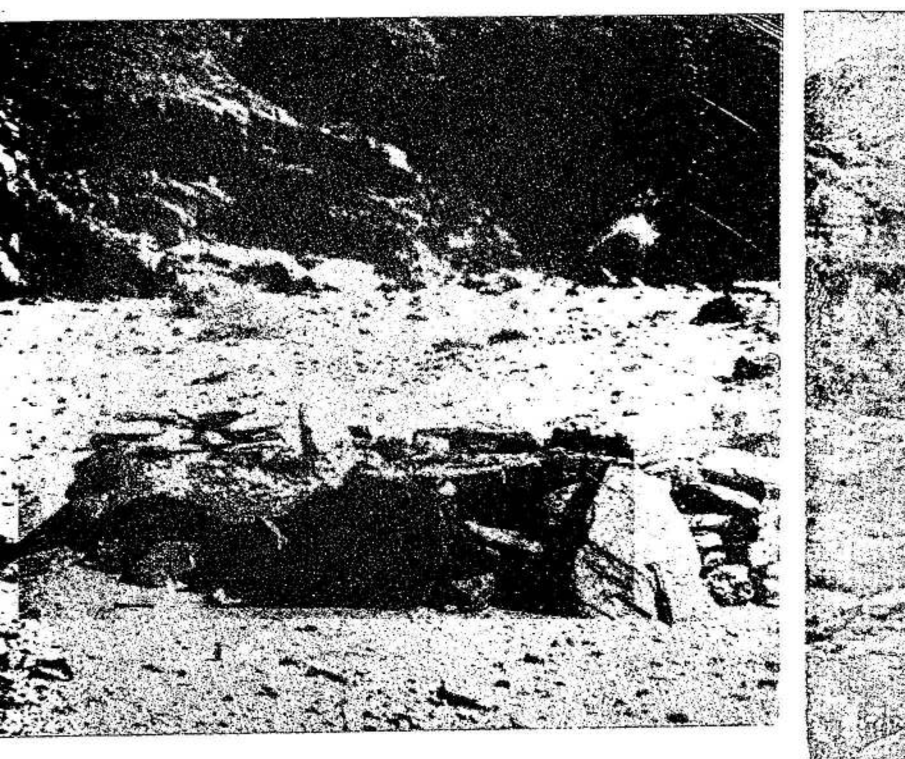
صورة 23 : نحت نيوليتي: كبش تاجنتورت (الهقار).

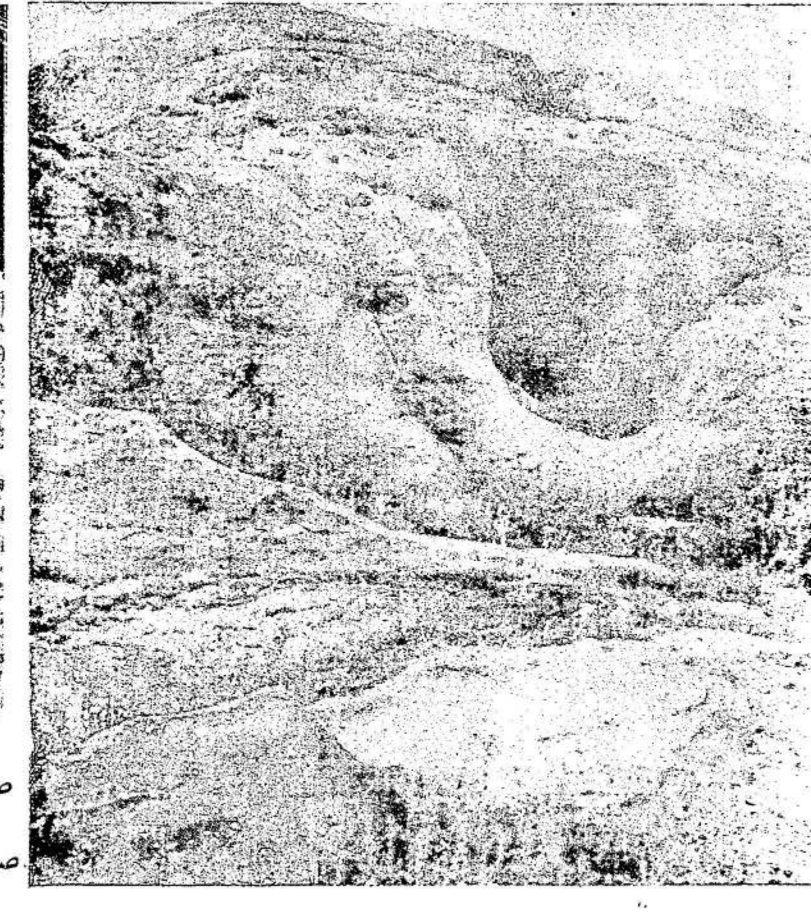


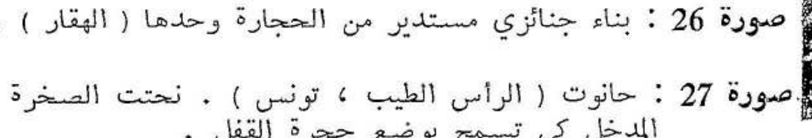
صورة 24 : رسم صخري نيوليتي : قطيع بقر ورعاته ، جبارن (طاسيلي ن — اجر) .



صورة 25 : نقش على الحجر غير مفهوم من تاراواهرت (الهمار) .

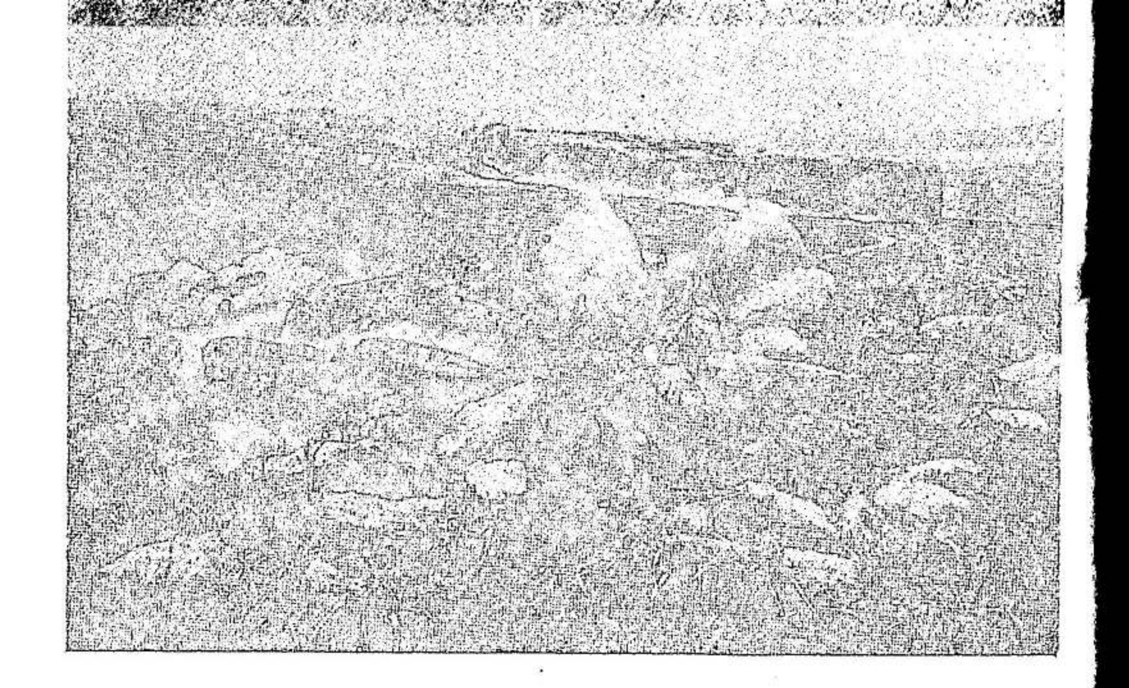


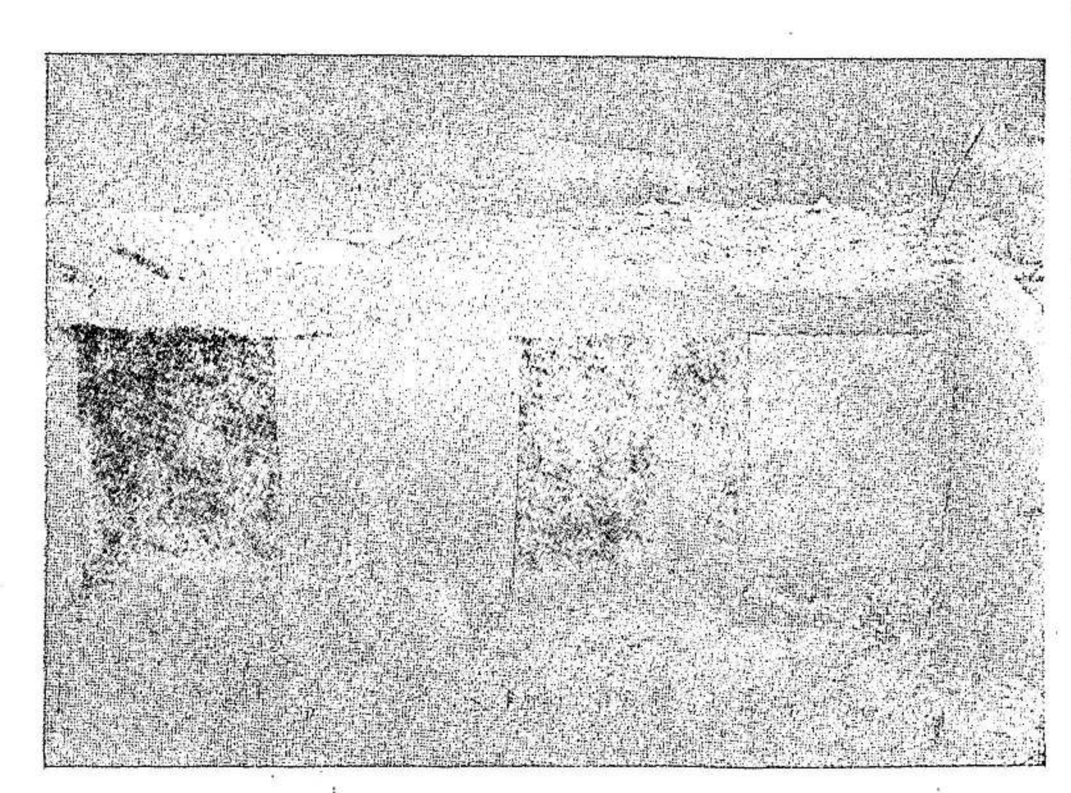




صورة 26 : بناء جنائزي مستدير من الحجارة وحدها (الهقار) .

صورة 27 : حانوت (الرأس الطيب ، تونس) . نحتت الصخرة
المدخل كي تسمح بوضع حجرة القفل .

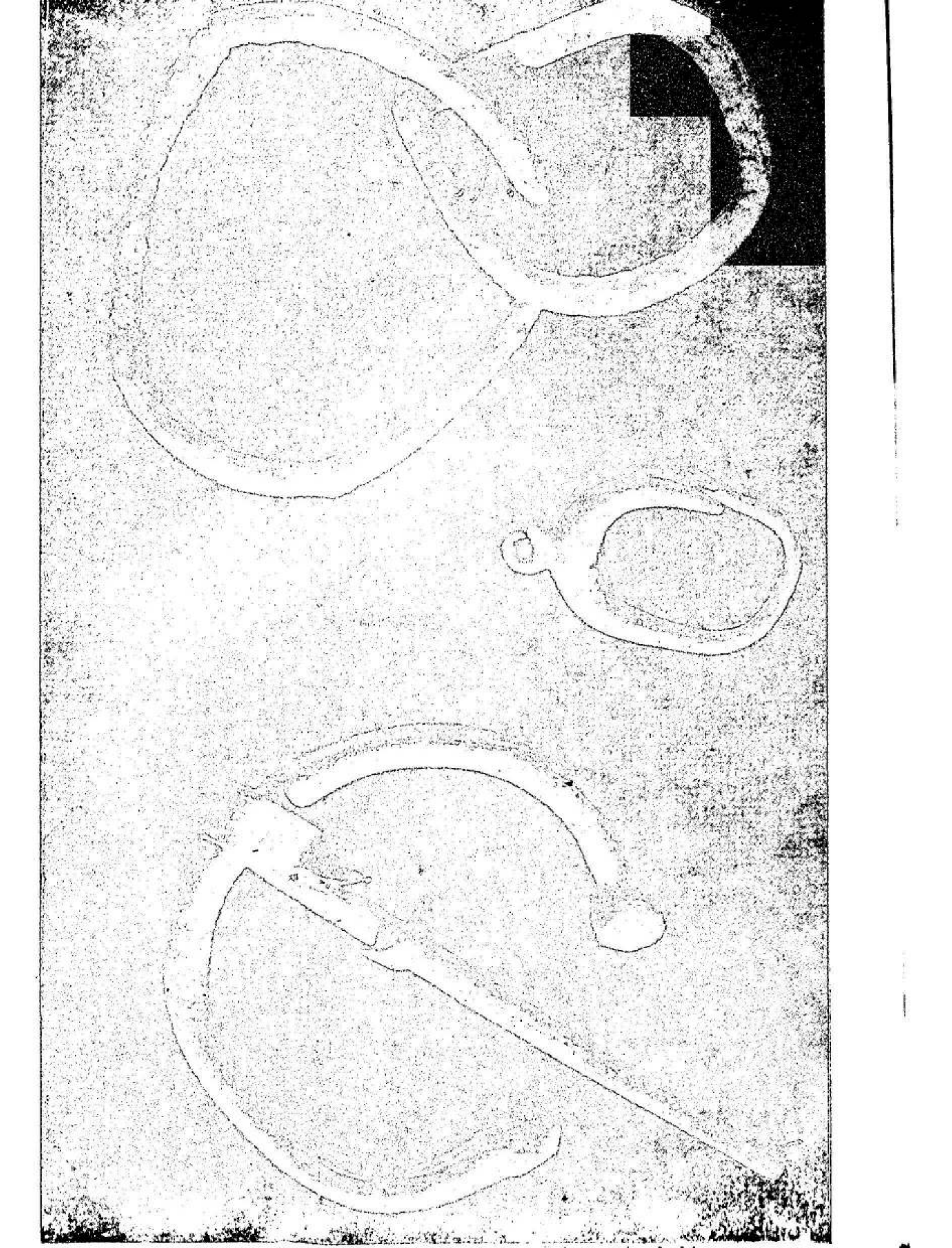




صورة 28 : مصطبة : مقبرة بونوارة (قسنطينة) .
صورة 29 : بناء جنائزي معقد من فجر التاريخ . مكثر (تونس) .



صورة 30 : فخار مدهون من فجر التاريخ بتديس (قسنطينة) .



العصر الحجري الحديث (نيوليتيك)

ظهرت فى الجزائر الشمالية والجنوبية ، خلال أزمنة مختلفة ، خضارة جديدة ، هي حضارة العصر الحجري الحديث (نيوليتيك) التي أحدثت تغييرا واضحا فى أساليب معيشة السكان كما تعد ابتكاراتها فى المجال التقني و فىأساليب استحصال الغذاء ثورات حقيقية ، وضعت قواعد للمجتمعات الريفية المغربية ، دامت عصورا عديدة . ان هذه المرحلة الطويلة التي بدأت فى الصحراء فى فجر الألف السابعة وامتدت حتى الألف الثانية ، قد شهدت تبدلات مناخية كبيرة المدى ، وقعت فى أصقاع الصحراء الواسعة . ورغم أن عوامل هذه التبدلات غير معروفة الا أنه من الواضح أن العصر الحجري الحديث قد عاصر فى الصحراء مرحلة رطبة أخيرة ، قبل أن يعم الجفاف شبه الكامل البلاد الواقعة جنوبي الأطلس . ويجب اذن أن نأخذ بعين الاعتبار هذا التبدل المناخي ، فيما اذا أردنا فهم الازدهار الحضاري الذي تم فى مجالات جغرافية تخلو اليوم من البشر .

كانت الجزائر الشمالية والصحراء عندئذ تكونان مقاطعتين متباينتين من حيث السكان والطابع الحضاري . وهو ما يحتم أن ينظر فى التغير الحادث فى مجال الأدوات ووسائل الاستعمال اليومي من زاوية تقسيم جغرافي وتكنولوجي . اذ أن ثورات الحجري الحديث لم تشمل بلادنا فى فترة واحدة ولا بكيفيات موحدة (شكل 17) .

بيد أنه يمكن وصف الخطوط الكبرى لتجديدات العصر الحجري الحديث .

لقد سجلت تقنيات صناعة الأدوات الحجرية تطورا فى مجال الصقل . حقيقة أن صناع ما قبل التاريخ قد صقلوا العظم وربما الحجارة أيضا ، قبل النيوليتي ، لكن تقنية الصقل لم تحظ لديهم بالأهمية التي ستكون لها فى النيوليتي . لقد برزت هذه التقنية الجديدة فى صناعة أدوات

الصحـراء

جنوب　　شمال　　السهول العليا　　التـل

شكل 17 : بدايات النيوليتي فى شمال افريقيا . وقع التحول الى النيوليتي فى فترات مختلفة . وباشكال متباينة حسب المناطق المأخوذة بعين الاعتبار .

أ . ب . م : ايبيرو ـ مغربي .
ن . أ . م : نيوليتي ذو أصول متوسطية .
ق . أ . : قفصي أعلى .
ق . ن : قفصي نموذجي .
ن . أ . ق : نيوليتي ذو أصول قفصية .
ع . ح . م : عصر حجري متأخر .
ن . أ . س : نيوتيلي ذو أصول سودانية .

تسمى بالفؤوس والبلطات التي كان الصقل يتناول جميع جوانبها ، أو بعضا منها ، وهي أدوات تنتهي بحد قاطع . غير أننا لا ندري فيما اذا كانت وظيفة تلك الأدوات تماثل وظيفة القطاعات والبلطات الحالية (صورة 28) .

وظهر أسلوب جديد فى مجال التهذيب الملحق بالحجارة المنحوتة . انه تنقيح شامل تناول جزءا هاما من الشظية . ومن أجل ممارسة هذا التنقيح أهملت تقنية الطرق واستبدلت بطريقة الضغط التي تسمح بنزع قطع أكثر دقة وطول . انها تقنية مرتبطة بظهور رؤوس السهام : وهي عبارة عن شظايا صغيرة ذات أشكال ثلاثية تقريبا ، تم نحتها بواسطة تنقيحات شملت الوجهين (صورة 19) .

ولكن هناك وثائق مادية تشهد بابتكار أكبر أهمية فى مجال تاريخ التقنيات وأنماط الحياة انه الفخار . لقد تواصل البشر لأول مرة خلال الحجري الحديث إلى صنع أوانيء توضع على النار دون أن تتحطم . واستخدموا لهذا الغرض الطين ، وهو مادة تتصف بالليونة والمقاومة .

هناك ثلاث طرق شاعت فى صناعة الأواني الفخاريـة أثنـاء العصر الحجري الحديث هي :

ــ صنعت بعض الأواني الفخارية اعتمادا على تقنية الحماميات ، حيث كان الصانع يشكل اسطوانة رقيقة من الطين ، ثم يمطلها ويعطي لها شكلا حلزونيا كي تكون جسم اناء .

ــ القولبة ، وتتمثل فى تغطية القالب (حبة قرع ، بيضة نعام) بالطين ، فيعطي القالب شكله للاناء .

ــ طريقة الطرق ، وتتطلب استعمال حصاة كمطرقة ، تطرق بها كرة الطين حتى تعطي الشكل المرغوب ، ومفهوم أن داخل الأناء هو الذي يطرق بهذه الكيفية .

يصقل الصانع ، فى حالة القولبة وتقنية الحماميات ، سطح الاناء غير المنتظم باستخدام مشذب أو خرقة مبللة ، وربما كان يقتصر على فعل ذلك بيده . والمشذب (من عظم أو خشب) هو عبارة عن أداة مسطحة قاطعة تسمح بسحج سطح الاناء الموضوع للصقل .

تأتي بعد ذلك عملية زخرفة الاناء ، والطين لايزال مرنا قبل أن يشوى، لقد تم التعرف على عدد كبير جدا من الأدوات التي كانت تستعمل فى الزخرفة ، نذكر هنا أهمها : المشط وهي أدوات ذات أسنان يختلف عددها وتباعدها . وقد يكون المشط مقوسا أو مستقيما . المسواط ويمثل نهاية مستوية حادة . كما استعملت المثاقب والاسفينات أيضا . بالاضافة الى مشط تدعى بالملولبة ، وتتمثل فى حبل صغير يلف حول قضيب مختلف المرونة . كما استفاد صناع الحجري الحديث من بعض الأدوات الجاهزة التي قدمتها الطبيعة ، مثل القواقع وسنابل الدخن والقضبان المجوفة ، الخ ..

للحصول على زخرف والآنية لاتزال طرية ، يكفي الضغط بالأداة على سطح الاناء ، وتكرير تلك الحركة بحسب الضرورة . كما يمكن الحصول على زخرف متنوع الأشكال باستخدام نفس الأداة ولـكن بكيفية مختلفة (شكل 18) .

بعض الأمثلة من الزخرف :

— يحصل على الزخرف المسنن بتحريك المسواط حول نفسه . واذا كانت نهاية المسواط دائرية ، يحصل على زخرف متموج .

— يشكل شق القصبة المستطيل زخرفا على شكل اكليل . وفيما اذا حرك الشق فى كل مرة حول نفسه بمقدار 180 درجة يحصل على زخرف موجي الشكل .

أ

ب

ج

د

هـ

شكل 18 : امثلة من زخرفة الفخار والادوات التي استعملت .

أ) شق قضيب مجوف .

ب) مشط ذو اربعة اسنان .

ج) مشط ملولب .

د ، هـ) مسواط .

تكون الأشكال والزخارف ، تبعا للاقاليم ، احدى قواعد التمييز والتصنيف فى حضارات الحجري الحديث .

لا يوجد ما يؤكد العلاقة بين صناعة الفخار المزخرف واستعمالاته ، وبين أعمال الزراعة . كانت الزراعة معروفة آنذاك فى أقطار أخرى من العالم كالشرق الأدنى مثلا . وفى الجزائر عثر على دلائل ضعيفة حول هذا الموضوع . غير أن الرسوم الصخرية تعد شهادة لا لبس فيها عن الرعي الذي كان يعتبر نشاطا متميزا لبعض سكان الصحراء .

لكن هذه الأساليب الجديدة فى مجال المعيشة لم تقض على الأساليب القديمة القائمة على الصيد البري والبحري وعلى جمع الأثمار رغم منافستها لها .

وهكذا فان رجال الحجري الحديث ، بمواصلتهم للتقاليد الفنية والتقنية السابقة للنيوليتي أدخلوا بلادنا عصر حضارات الرعي والزراعة ، ولقد ظلت تربية النبات والحيوان ، الى جانب استعمال الخزف ، صفات مسيطرة على الثقافة المادية لمجتمعات الريف الجزائري .

الحجري الحديث ذو الأصول السودانية :

تتجلى أقدم بقايا العصر الحجري الحديث فى المرتفعات الصحراوية وفى الهقار . حيث تعود محتويات موقع أمكني (شمال غرب تمنراست) الى 7600 ق . م . وهي تمثل نوعا من النيوليتي المعروف فى جهات أخرى وفى الصحراء الوسطى ، ويدعى بالنيوليتي ذي الأصول السودانية = (ن . أ . س) .

ان هذا النوع فقير نسبيا من حيث الأدوات الحجرية . ويظهر أن للمواد الخام الصعبة الانصياع دور فى هذا العوز . وتحتوي أدواته ذات

الصنع الرديء على شيء قليل من الأدوات المتخصصة (محكات ، مخارز ، نصال) ، وعلى رؤوس سهام رديئة جدا . غير أن أدوات الطحن فيه كثيرة . فزيادة على أنواع المطاحن المعروفة منذ الحجري المتأخر ، هناك أنواع أخرى من الرحى الحجرية المخصصة لسحق الحبوب (صورة 20) . كما ظهرت أيضا أدوات حجرية مصقولة وحجارة محززة ، وهي قطع مصقولة غالبا ، تحمل حزة أو عددا من الحزات العريضة . وليس مستبعدا أن هذا النوع من الأدوات كان يستخدم فى شحذ وصقل أدوات عظمية . وربما كذلك فى ضبط توازن بيض النعام . مع ملاحظة أن هذا الأخير كان نادرا فى (ن . أ . س) فعلا ان استعمال بيض النعام الذي كان شائعا فى العهد القفصي قد فقد هنا أهميته . ففي موقع أمكني مثلا ، لا توجد قطعة واحدة من بيض النعام المزخرف .

توجد أدوات من العظم المصقول ، لكنها قليلة من حيث العدد والتنوع . وعثر فى أمكني أيضا على خنجر جميل جدا ومزخرف ، وعثر فى منيت (بجبال مويدر) على صنارة وقطعة خطاف صيد من عظم ، مما يدل على ممارسة الصيد .

ويبرز الفخار ضمن هذه الأدوات القليلة التنوع مؤكدا أصالته السودانية ، خاصة فى الأشكال والزخارف .

ان الأواني كثيرة ، وتتميز بقعرها النصف دائري عن فخاريات النيوليتي بالشمال ذات القعر المخروطي (صورة 21) . ويحتمل أن الصناع قد استخدموا هنا تقنية معقدة : تحصلوا على القعر النصف دائري بقولبة الطين على جسم كروي (حبة قرع) ، ثم شكلوا بقية الاناء بطريقة الحماميات .

أما زخرف الأواني فهو غني ومتنوع ، ويظهر على سطح الأناء كله ، وعلى الجوانب الداخلية من حافة الاناء أيضا . ويوحي الزخرف الموجي الشكل فى أواني أمكني وأماكن أخرى كمنيت ، بتقارب مع الفخار النيوليتي القادم من السودان (الخرطوم) . وهنا يكمن أصل تسمية هذا النيوليتي بالسوداني الأصول .

أما الوثائق البشرية المكتشفة فى مواقع (ن . أ . س) فهي قليلة جدا . ولم يعثر منها فى الصحراء الجزائرية سوى فى مواقع أمكني ومنيت وتمنراست . (يوجد هذا الأخير على بعد بضع كيلومترات من المدينة) .

لقد أسفرت دراسة البقايا البشرية ، وخاصة منها الجماجم على النتيجة التالية ، وهي أن انسان نيوليتي الصحراء الوسطى لا ينتمي لأي من مجموعتي الانسان العاقل المعروفتين خلال العصر الحجري المتأخر ، والتي استمرت فى الشمال حتى العصر الحجري الحديث . ذلك أن هؤلاء البشر ينحدرون من فصيلة زنجية سودانية . تتميز على الخصوص ببروز الفقم (الفك المتقدم) والخيشوم العريض (الأفطس) ، وباستطالة السواعد والسيقان ، الخ ..

وبفضل المعلومات المستخرجة من مواقع (ن . أ . س) أمكن رسم صورة واضحة عن صحراء الحجري الحديث التي كانت تختلف عن صحراء اليوم . فعلا لقد كشفت فلوروفونا ذلك العصر بوضوح على مناخ كان أكثر رطوبة من مناخ اليوم . ولنا خير دليل فى موقع أمكني ، اذ تتكون فونا هذا الموقع من أنواع تعيش حاليا فى نفس الاقليم : مثل الغزال ، والتي تعيش فى مناطق أبعد فى مرتفعات الهقار كالأروية ، الى جانب أنواع تعيش فى مناطق جنوبية أكثر رطوبة واخضرار مثل الخنازير.

وفضلا عن هذا كشفت الحفريات بموقعي منيت وأمكني عن بقايا أسماك وزواحف ، مما يؤكد أن الصحراء كانت تسقيها مياه وديان هامة .

الحجري الحديث ذو الأصول القفصية :

ينتشر هذا النوع فى الشمال أكثر من نظيره (ن . أ . س) . بحيث أنه معروف فى الجزائر الشرقية مثلما ما هو فى شمالي الصحراء . ويتمثل الحجري الحديث ذو الأصول القفصية = (ن . أ . ق) فى الجزائر الشرقية خاصة فى مواقع داموس الأحمر وبوزاباوين وفى جبل فرطاس . أما فى الصحراء الشمالية فان مواقعه تمتد من الشرق الى الغرب بجوار مواقع (ن . أ . س) متجاوزة حدود الجزائر حتى المحيط الأطلسي .

وقع الانتقال هنا من القفصي الى النيوليتي بصفة تدريجية ، حيث عرفت صناعة الأدوات الحجرية اختفاء تدريجيا فى بعض الأدوات القفصية ، وكذلك الأدوات الحجرية المصقولة ، الى جانب الفخار طبعا ، وقد عرف هذا الفخار بأوانيه ذات القعر المخوطي والفتحة الواسعة وبزخارفه المركزة على الحافة . لكن الفخار لم يعرف الأهمية التي بلغها فى مرتفعات الصحراء الوسطى . ويبدو أنه تعرض لمنافسة شيء آخر هو بيض النعام ، حيث كانت البيضة تثقب وتفرغ ثم تستعمل اناء . وقد عثر فى مستوى النيوليتي بموقع مويلح (اقليم ورقلة) على مخزن حقيقي من بيض النعام ، يتكون من احدى عشرة قارورة (صورة 22) .

لكن بيض النعام قد أصبح منذ العهد القفصي مادة ضرورية أولية لصناعة قطع العقود والنوط والأساور .

يسيطر على قطع البيض المثور عليها زخرف تحزيزي ذو طابع هندسي غالبا . وتحمل القارورات فى موقع داموس الأحمر زخرفا من هذا النوع يحاذي الثقب العلوي فيها .

أما الأدوات العظمية المصقولة فى (ن . أ . ق) فهي غنية ومتنوعة مثلما كانت فى العهد القفصي ، واحتوت بعض المواقع ، كموقع بوزاباوين وداموس الأحمر على وفرة فى المخارز من مختلف الأشكال والأحجام ، وعلى سكاكين وملاعق ، وغير ذلك ..

اذا كانت وسائل الطحن بما فيها من عدد وأنواع ، كالمطاحن والمهارس والرحى ، فى كل من (ن . أ . ق) و (ن . أ . س) لا تبرهن على وجود زراعة ، فان ذلك يشير بالتأكيد الى أن الغذاء النباتي كان آنذاك أكثر انتشار منه فى الحجري المتأخر .

نيوليتي التـــل :

انه مجهول أكثر من سابقيه . ويحتمل أنه قائم على أصول ايبيري — مغربية . لكن كيفية انتقاله من هذا الأخير لم تدرس بعد .

يظهر هذا النيوليتي ممثلا فى كثير من مغارات الساحل الجزائري ، وخاصة فى إقليم وهران (مغارة بوليغون وطروغلوديت) .

تتكون أدواته الحجرية من قطع حجرية دقيقة (ميكروليثية) هندسية الشكل ، ضمنها بعض رؤوس السهام النادرة . يضاف اليها أدوات ثقيلة قديمة ، مثل المكاشط والقطع المحززة الخ ..

لكن أصالة هذا النيوليتي تتأكد أكثر فى الفخار وما ينطوي عليه من زخرف غني .

ويبدو أن أصحاب هذه الحضارة من أحفاد انسان مشتى العربي كانوا يمثلون أواخر الايبيري — مغاربة ، الذين أرغمهم التوسع القفصي على النزوح ، فيما يبدو ، نحو المرتفعات الساحلية (مرجاجو) .

ازدهار فن ما قبل التاريخ :

رأينا كيف ترجم الانسان اهتماماته ، منذ العهد القفصي ، فى أعمال من الرسم والنحت والنقش ، اعتبرناها عملا فنيا . غير أن تلك المنجزات كان يغلب عليها طابع البساطة فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة .

ولقد خلف الانسان النيوليتي ، الشمال والجنوب على السواء ، أعمالا فنية قيمة ، جعلت من الجزائر أحد المتاحف الكبرى لفن ما قبل التاريخ . ولايزال احصاء هذه المآثر أمرا بعيد المنال اذ تشهد كل سنة اكتشافات جديدة فى هذا المجال . ان ما نعرفه عن هذا الفن الآن يكفي لأن نعتبر الحجري الحديث مرحلة عبرت فيها عبقرية شعوب شمال غرب افريقيا عن نفسها بنجاح كبير .

المنحـــوتات :

تعد الاحجار القفصية المنحوتة بالمقطع من النوع الذي يصعب فهمه ، كما أنها ذات تقنية رديئة أحيانا . وهي تعتبر فى الوقت الحاضر أولى منتوجات ما قبل التاريخ . ظهرت خلال النيوليتي ، وخاصة فى الصحراء منحوتات معتبـرة من الناحيتين الفنية والتقنية ، حيث أصبحت تلـك المنحوتات مصقولة تماما ، وهي تمثل فى مجموعها تقريبا أشكالا حيوانية ، كبقر سيلي (الهقار) وجبارن (طاسيلي — ناجر) وغوندي عرق ادمير . كان النحت يقتصر أحيانا على نهاية قطع اسطوانية من الحجر المصقول ظلت تعتبر خطأ ، ولمدة طويلة مدقا . ومنها غزال اماكسن (طاسيلي —

ناجر) ، وكبش تاجنتورت (الهقار) (صورة 23) أو تامنتيت (توات) .
وتأخذ بعض هذه المدقات الوهمية شكل نهاية قضيب الذكر (الحشفة) .

الفــن الصخـري :

أبدع رجال الحجري الحديث فى مجال الرسم والنقش على الجدران الصخرية .

لقد تجلت أعمالهم فى جهات كثيرة : فمناطق الأطلس الصحراوي من حدود المغرب الأقصى حتى الأوراس غنية بالنقوش الصخرية . وفى الطاسيلي ناجر تكثر الجدران الصخرية المرسومة ، بينما تندر هنـاك النقوش . وفى مرتفعات الهقار الجبلية توجد كل من النقوش والرسوم .

ونحدد لأنفسنا هنا ذكر بعض المحطات من كل من المناطق الثلاثة السالفة الذكر ، اذ ليس فى نيتنا القيام باحصاء كامل لمواقع الأعمال الفنية فى الجزائر :

مواقع الأطلس الصحراوي :

— فى الجنوب الوهراني : تيوت ، موغرار تحتاني ، الريشة ، سفيسيفة ،
— فى جنوب الوسط الجزائري : صفية بورنان ، عين ناقة ، صخر الحمام ، الحصباية .
— فى الشرق القسنطيني : عين رقادة ، خنقة الحجر ، كاف لمساورة .
— فى الطاسيلي — ناجر : توجد محطات الرسوم الكبرى فى أعالي الهضبة الواقعة شمال وشمال شرق مدينة جنت ، ونذكر منها : صفار ، جبارن ، تامريت ، تان زوميتان .
— فى الهقار : يعد مرتفع تيفيديست من أغنى الأمـاكن بالرسوم والنقوش ، وهناك مواقع أخرى بالقرب من مدينة تمنراست .

لم يمارس صناع ما قبل التاريخ الرسم والنقش ، خلال فترة النيوليتي أو بعدها ، بنفس الطريقة ، كما أنهم لم يرسموا نفس الأشياء . حيث تبدو الرسومات متراكبة وفى أساليب مختلفة . واعتمادا عـلى هـذا التركيب وعلى تحليل الصور وأساليبها ، أمكن وضع تصنيف عـام للرسوم الصخرية . فهناك مرحلة أولى هي مرحلة المدرسة القديمـة ، وتمتاز بوجـود الحيوانات المتوحشة الكثيرة ، خاصة منها الجاموس القديم . كما تبرز فيها هيئات بشرية ذات رؤوس مستديرة وأخرى فى أشكال كبيرة غريبة (معبودات) وحيوانات طويلة القامة . ثم المرحلة الثانية المعروفة بمرحلة « المدرسة الطبيعية » ، وتحتوي خاصة على رسوم الأبقار فى صورة قطعان أو فرادى . انها مرحلة رعاة الأبقار . هذا وقد واصل الناس ، بعد مرحلة ما قبل التاريخ ، ممارسة الرسم والنقش على الجدران الصخرية . وقد تلت مرحلة الأبقار فترة الحصان ، ثم عصر الجمل القريب منا .

ومهما كانت صلاحية هذا التصنيف ، فانه يمكن جمع وعرض المواضيع المسيطرة فى تلك الأعمال الفنية باختصار ، وهي أعمال امتاز فيها كل اقليم بخصائصه ، كما تعايشت أحيانا فى لوح واحد أعمـال عصور مختلفة . ويجب ألا ينسينا اذن هذا التجميع بحسب المواضيع ، فى أن اللوحات تكون فى حد ذاتها مجموعات معقدة .

الحيــــوانات :

ان الجدران المرسومة أو المنقوشة تكون كتب حيوان حقيقية . فقد مثل الانسان حيوانات وحشية كالفيلة والسنوريات والنعام والزرافات والكر كدن والغزلان والظبي والثيران القديمة والأروية وأفراس البحر ، وكذلك الحيوانات التي ربما كانت موضوع عبادة (عبادة الحيوان) ، مثل ذلك الكبش الذي تعلو رأسه كرة ، وهو كثير الوجود فى نقوش

الأطلس ، ويدعو الى احتمال ممارسة العبادة المصرية المثلة فى كبش آمون ، وهناك أخيرا الحيوانات الأهلية ، كالغنم والماعز والثيران والبقر والكلاب . ثم الحصان والجمل فيما بعد . وتظهر علامـــات تدجين الحيوانات ، قبل ظهور الحصان والجمل ، بصفة محسوسة فى الحيوان نفسه . حيث تحمل صورة البقرة أو الثور أحيانا زماما (مقود) ، وتبدو أحيانا أخرى فى منظر اللوح العام ، مثلا : شخص يرعى قطيعة من الثيران باطمئنان (لوح جبارن الكبير) (صورة 24) ، وكذلك النساء اللواتي يركبن ثيرانا ويقدنها بمسك الزمام .

البشـــــر :

ان التمثيل البشري يمنح للفن النيوليتي الجزائري أصالة حقيقية . فهو ان قربه من نقوش الشرق الاسباني ، يباعد كليا بينه وبين الفن المعروف بـ (فرانكو ــ كانتابزيك) العائد الى العصر الحجري الاعلى والذي تنعدم فيه الرسوم البشرية تقريبا .

لقد رسمت على الجدران صور الرجال والنساء والأطفال من مختلف الأعمار ، وهي فى وضع عادي أحيانا ، وفى مشاهد من الحياة اليومية ، كمناقشة قرب الكوخ ، مثل التي توضحها رسوم صغار ، أو فى قيادة القطيع نحو المرعى كما هو الشأن فى تين تازاريفت . أما مناظر القنص أو المعارك فهي كثيرة ، خاصة فى الطاسيلي (صفار ، جبارن) لكن الصور تكون أحيانا غامضة كثيرا فيصعب فهمها أو يستحيل ، مثـــل المشهد الذي يمثل شخصا بفأس (؟) قرب حيوان ، ورجلا بعضو تناسل لا قياس له ، وجماعة من الناس فى وضعية من الحركات لا يمكن فهمها (أذرع ممدودة ، أشخاص جالسون أو قائمون بدون سبـــب واضح) .

لاتزال المعلومات المستخرجة من هذه الرسوم متواضعة جدا ، وهي غالبا مشوهة غير أنها تقدم لنا نظرة عن ملابس الرجال أو النساء وزينتهن، وعن الحيوانات الأهلية المحيطة بهم ، والتي ما تزال فى حالة توحش وهم يصطادونها فيما يبدو .

تشخيصات مبهمة :

يمكن التأكد من هيئات الانسان أو الحيوان ولو تعذر علينا فهم المشاهد التي يظهرون فيها لكن هناك أشكالا فى الفن الصخري لا يمكن تفسيرها سوى عن طريق تأويل ضعيف جدا ، اعتبر بعضهـــا ضمـــن المعبودات كالاله الأكبر (؟) « المريخ » بجبارن ، والاله الأكبر بصفار، والسيدة البيضاء ، والاله القرناء بأوانغيت ، انها تفسيرات غير مؤكدة . وهناك من اعتبر صور النساء الحوامل ، والرجال ذوي الأعضاء التناسلية الكبيرة رمزا لطقوس عبادة الخصوبة . ورأى بعضهم فى الأيدي المرسومة رمزا للوقاية من الأمراض الخ .. لكن هذه المحاولات تتعذر تماما فى بعض المشاهد الأخرى ، فتظل الرسوم أو المنحوتات مبهمة تمامـــا (صورة 25) .

وواضح أن هذه التفسيرات قائمة على أسس التصورات الكلاسيكية البالية ، كرمز الخصوبة وطقوس المطر وعبادة الحيوان الخ .. ولم يبق هناك سوى احصاء علمي لهذه الأعمال الفنية ، يسمح بتوفير الشروط الملائمة للتصدي لمشكل تفسير الفن الصخري الجزائري المعقد ، مع بعض الحظوظ فى التوفيق .

فجر التاريخ

ليس من النافع جدا اعتبـــار نهاية النيوليتي حدا لما قبل التاريخ . حقيقة أنه بعد العصر النيوليتي كاد استعمال الحجارة كمادة أولية فى صناعة لأدوات أن يتلاشى نهائيا ، لكن المعادلة القائلة بـأن ما قبل التاريخ = عصر الحجارة قد تجاوزها الزمن فى الوقت الحاضر ، اذ نعلم أن هناك مواد أخرى كثيرة قد تناولها الصناع القدامى ، مثل العظم وبيض النعام والطين ، والخشب بصفة محتملة جدا .

برزت المرحلة التالية للعصر النيوليتي فى مجال الآثار فى صورة ثورات جديدة لا نعرف كيف حدثت على وجه التحديد ، ولكن وثائقها تشهد عليها . وتتضح هذه التبدلات أولا فى الكيفية الجديدة لدفن الموتى ، وهو هذا التنوع الكبير فى الصروح الجنائزية التي تتأكد بوضوح فى مشاهد المقابر الميغاليتية الواسعة .

لقد احتفظت هذه الآثار بوثائق تشهد بتجديدات أخرى ، مثـــل استعمال المعدن ، ولكيفيات الجديدة لصنع وزخرفة أوانيء الفخار .

سبق أن رأينا ضمن الفصول السابقة أن التحري الأثري عبر العالم ، سمح بالتوصل الى معرفة الحالة التي كان عليها الأحياء (أدواتهم وحليهم ونظامهم الغذائي وأعمالهم الفنية وأنماط معيشتهم وأمراضهم الخ ..) . مثلما مكن من معرفة حالة الأموات (كيفيات الدفن) . وبالمقابل فان علم آثار فجر التاريخ يكاد يقوم أساسا على الوثائق المستخرجة من المقابر . حقيقة أنه يوجد فن صخري تال للعصر النيوليتي (نقــوش الأطلس الأعلى المغربي ونقوش قبور جرف التربة) وهو من النوع الذي يجب ألا نبخس قيمته . لكن فيما يتعلق بهذه المرحلة فانه من خلال لسان حال الأموات فقط يمكن أن نأمل فى استشفاف حال الأحياء .

الصروح والطقوس الجنائزية :

استخدم سكان فجر التاريخ أنواعا كثيرة من الصروح لدفن أمواتهم . وأكثر هذه الصروح بساطة هي عبارة عن تـلال صغيرة من الحجارة أو التراب تدعى (تومولس) ، ودوائر من الحجارة البسيطة أو المتمركزة ، أو فراغات شبه دائرية مبلطة . وتوجد هذه الأشكال في الشمال كما توجد في الجنوب أي في الصحراء (صورة 26) . وتعرف في شرقي الجزائر وتونس أشكال أخرى أكثر تعقيد ، هي الحوانيت والمصاطب . فالحوانيت (صورة 27) هي حجر مكعبة الشكل محفورة في الصخر ، وتغلق بواسطة ألواح حجرية مركبة رأسيا كما توحي الحزات المحفورة في حواف الفتحة . أما المصاطب (دولمان) (صورة 28) فهي صروح مكونة من ألواح حجرية قائمة ، تشكل حجرة مستطيلة يسقفها لوح حجري أفقي . وقد تكون المصاطب مغروسة في الأرض بعمق مختلف ، كما تكون موضوعة في أعلى صف أو صفوف من الحجارة الثابتة ، الخ ..

تحتوي الجزائر على مقابر جميلة من المصاطب ، مثل مقبرة جبل مازلة ببونوارة على الطريق الرابط بين قسنطينة وقالمة ، ومقبرة ركنية شمال حمام المسخوطين ، ومقبرة سيقوس عـلى الطريق الرابط بين قسنطينة وعين البيضاء ، ومقبرة بني مسوس قرب مدينة الجزائر .

هناك أشكال أخرى من الصروح الجنائزية ، مثل القبور التي تأخذ شكل الاهراء (المطابير) في غربي الجزائر والمغرب الأقصى ، وكذلك الممرات المبلطة التي تأخذ شكل أروقة مبنية بألواح من الحجارة (أيت راونة ببلاد القبائل) . وتوجد في شمال الجزائر والصحراء أشكال من المقابر أكثر تعقيدا ، هي البازينات ، مثل بازينات تنديس بالقرب من قسنطينة ، وهي عبارة عن تلال (تومولوس) تكسوها حجـارة من الخارج . وكذلك الشوشات ، وهي أبـراج صغـيرة بنيت جدرانهـا الخارجية بعناية كبيرة . ثم الصروح المسماة في الصحراء بفتحة القفل .

وأخيرا هناك صروح كبيرة الأبعاد ذات غرف عديدة متصلة ببعضها عبر رواق أو مطاف ، مثل آثار مكثر (صورة 29) والليز بتونس ، وكذلك آثار تين هينان بأبالسة (الهقار) .

ويجدر أن نضيف الى مقابر المصاطب الشمالية مقابر الهقار الكبرى ذات الصروح المتنوعة ، مثل مقابر تيت (شمال غرب تمنراست) وسيلي وأباليسة .

لقد ألقت حفريات الآثار الجنائزية لفجر التاريخ بعض الأضواء على الطقوس المتعلقة بالموت .

كانت طرق الدفن متنوعة : كثيرا ما وضعت الجثة مطوية على الجنب أو الظهر ، وهي طريقة معروفة منذ العصر الحجري المتأخر . غير أن حالة بعض الهياكل العظمية تدل أحيانا ، مثل ما هو الحال في جبل مازلة ، على اعادة الدفن . فبعد تخلص الجثة من لحمها تجمع العظام وتدفن من جديد . وتوجد أيضا حالات نادرة من الترميد .

كان الأناس فجر التاريخ اهتمام بحاجيات الميت ، وهو ما يظهر في التقدمات التي ربما اشتملت على قربان حيوانية . اضافة الى وضع أشياء عادية قرب المتوفى كأثاث الفخار وقطع الحلي المعدنية . كما استعملوا المغرة الحمراء بكثرة مثل ما هو الشأن فيما قبل التاريخ .

الفخـــار :

يختلف الفخار هنا عن مثيله النيوليتي من حيث الشكل والزخرف . ذلك أن الأواني في العصر النيوليتي كان قعرها مخروطي الشكل أو نصف كروي . وكان الزخرف فيها يتم عن طريق الضغط على الطـين وهو لايزال مرنا . أما فخار فجر التاريخ فله قعر مستو ، أما جانب

الاناء فيأخذ شكلا مخروطيا أو انسيابيا أو محدب الاستدارة (شكل 5).
وبهذا فأشكال الفخار هنا أصيلة أكثر . ومنها الصحون أو الأطباق والقصاع والأقداح (الأكواب) ، والأواني المختلفة . وقد أضيف الى بعض هذه الأواني ملحقات (هي نادرة جدا في النيوليتي) كالمقابض والمناقر والمصافي ، وحلمات للمسك .

ان زخارف الفخار دهنية ، استعملت فيها طلاءات بيضاء أو حمراء . ويتكون الزخرف من تعاقب عصابات ملونة على أرضية موحدة اللون ، كما يكون أحيانا في شكل عصابات من الخطوط أو النقط ، ولقد احتوى الفخار المستخرج من بازينا تديس على زخرف هندسي (مثلثات) تلازمه ، وعلى نفس الاناء ، أشكال زخرفية تخطيطية تمثل طيورا ونباتات وأشخاصا (صورة 30) .

وهناك أمر هام يكمن في التوزع الجغرافي للصروح الجنائزية المحتوية على الفخار ، انها تتواجد كلها ، باستثناء واحدة أو اثنتين ، في مناطق التهاطل الكافي لامكانية القيام بزراعة القمح دون حاجة الى سقاية . يضاف هذا الى أشكال الأواني التي تحتوي على أوجه شبه كثيرة بالأواني الحالية . هذا كله دليل يوحي بالاعتقاد في أن السكان كانوا زراعا مستقرين .

استعمال المعادن

ظل المؤرخون ، لمدة طويلة ، يعتبرون أن شمال افريقيا لم يعرف المعدن سوى مؤخرا على يد البحارة الفنيقيين . على أننا نعلم اليوم أن سكان فجر التاريخ قد عرفوا النحاس والبرونز قبل الحديد ، خاصة في المناطق الغربية من بلاد البربر . لقد احتفظت أقدم القبور بقطع من الحلية المعدنية منها أساور مفتوحة ، وخلاخل وخواتم ، وأقراط (صورة

31) . زيادة على ذلك هناك الاكتشافات المبعثرة ، والمعلومات المستخرجة من دراسة النقوش الصخرية بالأطلس الأعلى المغربي التي تؤكد وجود اسلحة معدنية ، مثل الخنجر ، المكتشف في شنوة ، والفؤوس والحراب والخناجر المرسومة في الجدران الصخرية للأطلس المغربي .

ان التنوع الجغرافي للصروح الجنائزية وأدوات المعدن مهدت السبيل لاقليمية حقيقية عرفها شمال افريقيا خلال الألفين سنة السابقتين لميلاد المسيح . فمن المؤكد أن أطراف المغرب كانت لها علاقات بالبلاد المجاورة في الطرف الآخر من المتوسط كالمجموعة الايطالية — الصقلية من الناحية الشرقية ، وايبيريا من الناحية الغربية ، في حين كانت بلاد الجزائر المجاورة للصحراء مرتبطة أكثر بالصحراء وبافريقيا ، بينما ظل وسط الجزائر اقل تأثر بهذه التيارات الحضارية .

وهكذا رسمت هذه الجهوية الاطار الجغرافي والثقافي الذي انصهرت فيه شعوب البربر قبل الميلاد ، فكانت بلاد البربر الشرقية ، بلاد الحوانيت والمصاطب موطنا للماسيليين . وبلاد البربر الوسطى التي تمتد من الملوية حتى وادي الرمل ، بلاد المازيسيليين . ثم بلاد البربر الغربية ، وتمتد من المحيط الأطلسي الى الملوية ، وكانت موطنا للموريطانيين . وأخيرا بلاد البربر المجاورة للصحراء موطن الجيتوليين والغارامنتيين .

خاتمة :

تحمل بلادنا الممتدة من شواطيء البحر المتوسط الى تخوم الصحراء ، في رفاف وديانها ، وتجويفات جبالها ، في سطح رقوقها ومنحدرات شواطئها ، تحمل بصمات متواضعة ، ولكنها واضحة عن تواجد بشري يعود الى آلاف السنين . لم يكن البشر الذين عاشوا هنا يشبهون بعضهم طيلة هذا الزمن المديد ، لقد تغيرت البنية الفيزيائية ما بين انسان الأطلس والانسان النيوليتي وأخفقت مجموعات بشرية في معايشة مجموعات أخرى مؤهلة لدوام أطول ، ولكن خلال هذه التغييرات التي حدثت هنا مثلما حدثت في افريقيا وآسيا وأروبا ، وبفضلها بحث أناس ما قبل التاريخ واستطاعوا أن يسيطروا أكثر فأكثر على العالم المادي ، بواسطة الصيد البري والبحري ، وقطف ثمار النباتات الطبيعية ، ثم بتربية النبات والحيوان . كل ذلك من أجل القوت ، وكانوا على مر الزمن الطويل المليء بالنجاحات والاخفاقات والركود ، يبتكرون دائما أدوات فعالية لضمان سيطرتهم على الغذاء .

لكنهم في الوقت ذاته أخذوا يعبرون بلغة تشكلت عندنا أواخر العصر الحجري ، وتأكدت أثناء النيوليتي ، عن اهتمامات ، علاقتها بالبقاء ضعيفة كما يبدو لنا .

وان كنا لا نفهم هذه اللغة المعروضة في رسوم جدران المخابيء ، والمسجلة في عمل النحت والصقل الدؤوب فلا أقل من الاقرار بجمالها .

فهــــرس الأشكـــــال

فهرس الصـــور

فهـــرس الموضوعات

الإيداع القانوني :2511-2007
ردمك :7-282-24-9947-978

سحب الطباعة الشعبية للجيش
الجزائر - 2007

ISBN 978-9947-24-282-7

